

من قصص القرآن والسنة قصة مؤمن آل فرعون

دروس وعبر



الشيخ الدكتور
أبو عبدالرحمن سمير بن أحمد الصباغ

مؤمن آل فرعون

من قصص القرآن والسنة

دروس وعبر

كتبه الفقير إلى عفوره الشيخ الدكتور

سمير بن أحمد عبد الخالق الصباغ



حقوق الطبع مبدولة لعموم المسلمين

١٤٤٧ هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ
أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا
هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
تَسَاءَلُونَ بِهِ، وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا
عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بعدُ: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي نبينا
محمد ﷺ، وكلُّ محدثة بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في
النار.



من عظيم وسائل التربية والتعليم التي ربي الله بها هذه الأمة وعلمها بها: الاعتبار بأحوال السابقين، فالسعيد من وعظ بغيره؛ ولذلك أكثر الله تعالى من ذكر قصص الأنبياء والمرسلين والأمم المكذبة لهم، وما حصل لهم جزاء تكذيبهم وعنادهم، وما آل إليه أمرهم من شقاوة الدنيا والآخرة، مع بيان حال المؤمنين الذين صدقوا الأنبياء واتبعوا المرسلين، وما آل إليه أمرهم من سعادة الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف: ١١١]، وقال سبحانه وتعالى: {فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [١٧٦:١].

ومن هذه القصص العظيمة التي ذكرها الله تعالى في القرآن المجيد قصة الرجل المؤمن الذي كان يكتُم إيمانه من آل فرعون، والذي جهر بإيمانه في وقت حاسم أوشك فرعون فيه على قتل



إمام الدعوة في زمنه نبي الله موسى الكليم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فانبرى هذا الرجل للدفاع عن نبي الله موسى، وعن دعوته، وبين لفرعون وملئه الحق الذي يجب أن يتبع، ودعاهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقال كلمة الحق عند السلطان الجائر بالترغيب والترهيب والأدب الجَمِّ، وخطب فيهم خطبة عظيمة ذكرهم فيها بنعم الله عليهم ومآلات الشاكرين، وعواقب المكذبين، وذكرهم بالدار الآخرة، وحقارة الدنيا وزوالها، وزوال أهلها، وذكرهم بالجنة والنار والحساب والجزاء، رغبهم فيما عند الله من النعيم للمصدقين المتبعين، ورهبهم فيما عنده من الجحيم والعذاب الأليم للمكذبين المعاندين، ودعاهم إلى التوحيد ونهاهم عن الكفر والشرك، ودعاهم إلى أركان الإيمان، ومعاني الإسلام في أبلغ عبارة سجّلها الله في كتابه، وخلّد بها ذكر هذا المؤمن المجاهد الذي بذل نفسه لله؛ دفاعاً عن رسل الله وعن دين الله تعالى.



وفي هذا أعظم دليل على عظم جزاء الدعاة المخلصين لله في تبليغ وتعليم دعوة الله: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾} [فصلت: ٣٣].

وفيه بيان عظيم فضائل أصحاب محمد ﷺ، الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم وأولادهم وما يملكون دفاعاً عن رسول الله وعن دعوته، ولم يكتموا إيمانهم، وإنما صدعوا بالحق، وعادوا كل من عاداه، وجاهدوا في سبيل الله لنصرة الله ورسوله، ونشر دينه في الأرض، فرضي الله عنهم ورضوا عنه.

وفي هذه الرسالة الموجزة نذكر فيها بمشيئة الله تعالى الآيات الواردة في هذه القصة، مع بيان معاني كلماتها، ثم بيان المعنى الإجمالي للقصة، ثم نبين الدروس والعبر والمواعظ المستفادة من هذه القصة، والتي هي مقصود هذه الرسالة؛ لقول الله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾} [الحج: ٢٤]، ولقوله سبحانه: {كِتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَذَكَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ



أُولُوا الْأَلْبَبِ ﴿٢٩﴾ { [٢٩:١]، ولقوله سبحانه: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ

عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَبِ} [يوسف: ١١١].

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُفَقِّهَنَا فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَجْعَلَ عَمَلَنَا خَالِصًا لَوَجْهِهِ
الكَرِيمِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ،
وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
أَجْمَعِينَ.



المبحث الأول

الآيات الواردة في قصة مؤمن آل فرعون ﷺ

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنَِّّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكْذِبَا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُمَا وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادِ



وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُومُ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُثْلَوْنَ مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ
اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ
جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا
جَاءَكُمْ بِهِ ﴿٣٥﴾ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا
كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
عَايَةِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ
آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنِي لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٨﴾ أَسْبَابَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ
لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي
تَبَابٍ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٤٠﴾
يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنَعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٤١﴾
مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ
أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٤٢﴾ وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ



﴿٤١﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا
 أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفْلِرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ
 دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ
 أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمُورِي إِلَى
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَقَوْلَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ
 بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا
 وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ { [غافر: ٢٣:



المبحث الثاني معاني كلمات القصة

- ١ - {بَيَّاتِنَا} : بالمعجزات التي أيدناه بها لإثبات نبوته.
- ٢ - {وَسُلْطٰنٍ مُّبِيْنٍ} : برهان ظاهر، وحجة ساطعة، وهي التوراة.
- ٣ - {وَهٰمٰنَ} : هو وزير فرعون.
- ٤ - {وَقٰرُوْنَ} : هو رجل كان من قوم موسى، ابتلاه الله بكثرة المال، فبغى وطمع وتكبر، وصار عدواً لموسى ﷺ.
- ٥ - {سٰحِرٌ} : الساحر هو الذي يتعلم السحر ويمارسه، ويستعين بالشياطين لإيذاء الناس.
- ٦ - {كٰذٰبٌ} : هو الذي يقول غير الحق والحقيقة، لما جاءهم موسى بمعجزة العصا واليد حاولوا تكذيبه وصد الناس عنه وعن دعوته، فاتهموه بأنه ساحر وأنه كذاب، وهذه عادة الكفار والمنافقين والحاسدين في كل مكان وزمان.



- ٧- { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا } : أي جاءهم موسى بالدين الحق والصدق الذي أخبر الله به من التوحيد وشرائع الإسلام.
- ٨- { أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ } ؛ أي: اقتلوا الذكور منهم.
- ٩- { وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ } ؛ أي: اتركوا بناتهم أحياء.
- ١٠- { ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ } ؛ أي: اتركوني أقتله، وليسأل ربه ليمنعه مني.
- ١١- { يُبَدِّلْ دِينَكُمْ } : يغيّر عبادتكم إلى إله الذي يعبد.
- ١٢- { أَلْفَسَادَ } : ضدّ الصلاح.
- ١٣- { عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ } ؛ أي: استجرتُ بخالقي سبحانه، وهو ربي وربكم ورب كل شيء.
- ١٤- { مُتَكَبِّرٍ } : متعالٍ مغرورٍ مُعْجَبٍ بنفسه.
- ١٥- { لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ } ؛ أي: لا يصدق بيوم الحساب.



١٦- {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ}: هو رجلٌ مسلمٌ على دينِ موسى ﷺ من أهلِ مصرَ، وكان يُسرُّ بالإسلام.

١٧- {ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ}: غالبين ممكنين في مصرَ.

١٨- {بَأْسِ اللَّهِ}: عذابِ الله.

١٩- {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى}: أي: القولُ قولي، والرأيُ رأيي.

٢٠- {سَبِيلَ الرَّشَادِ}: أي: طريقِ الصوابِ.

٢١- {وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ}: هو مؤمن آلِ فرعونَ.

٢٢- {مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ}: أي: مثلَ عذابِ الجماعاتِ الكافرةِ من قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ.

٢٣- {مِثْلَ دَابٍ}: أي: عادة.

٢٤- {يَوْمَ النَّادِ}: يومَ القيامةِ، والذي يكثرُ فيه التنادي، قال

تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾} [القصص: ٦٥]،

وقال تعالى: {وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾} [٥٠] ، وقال سبحانه: {وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِينُونَ ﴿٧٧﴾} [الزخرف: ٧٧].

٢٥- {يَوْمَ تُولُودُ مُدْرِينُ}: هارين من العذاب.

٢٦- {يُوسُفُ}: هو نبي الله يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

٢٧- {قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ}؛ قلتم: لا يرسل الله رسولا بعد يوسف.

٢٨- {مُسْرِفٌ}: متجاوز الحد في الشرك والمعاصي.

٢٩- {مُرْتَابٌ}: شاك في دين الله.

٣٠- {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ}: يُخَاصِمُونَ لإبطالها وتكذيبها.

٣١- {كَبْرٌ مَقْتًا}: اشتد غضبا.

٣٢- {مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}: مُتَعَالٍ عن الحق، ظالم للخلق.



- ٣٣- {صَرَحًا}: بناءً عاليًا مثل البرج.
- ٣٤- {الْأَسْبَبَ}: الطرق الموصلة إلى السماء.
- ٣٥- {سُوءَ عَمَلِهِ}: قبيح عمله.
- ٣٦- {وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ}: أغلق في وجهه طريق الهدى.
- ٣٧- {تَبَابٍ}: هلاكٍ وخسارةٍ وضياعٍ.
- ٣٨- {الدُّنْيَا مَتْنَعٌ}: أي: متاعٌ يُتَمَتَّعُ به وقتًا قليلًا ثم يزول ويفنى.
- ٣٩- {النَّجْوَةُ}: الفوز بخيري الدنيا والآخرة.
- ٤٠- {وَتَدْعُونَنِي إِلَى الثَّارِ}: أي: إلى الكفرِ والشركِ والبدعةِ والمعصية التي تؤدي إلى دخول النار.
- ٤١- {الْعَزِيزِ}: الغالب على أمره، وهو الله سبحانه.
- ٤٢- {الْغَفَرِ}: السَّيِّئِ لذنوبِ خلقه الماحي لها، وهو الله.
- ٤٣- {لَا جَرَمَ}: حقًا.
- ٤٤- {لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ}: أي: ليس له دعوةٌ حقٌّ، ولا استجابةٌ.



٤٥- {فَوَقَلَهُ اللَّهُ} : حَفِظَهُ وَأَنْجَاهُ مِنْ مَكْرِهِمْ.

٤٦- {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ} ؛ أَي: حَلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ.

٤٧- {الْأَنَارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} ؛ أَي: يُعَذَّبُونَ فِي نَارِ

الْقَبْرِ صَبَاحًا وَمَسَاءً.

المبحث الثالث المعنى الإجمالي للقصة

قَصَّ اللهُ تَعَالَى قَصَصًا كَثِيرَةً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ لِيُسَلِّيَ بِهَا النَّبِيَّ ﷺ وَيُصَبِّرَهُ، وَلِيُعَلِّمَهُ أَنَّ الْبَلَاءَ مَهْمَا اشْتَدَّ يَعْقُبُهُ الْفَرْجُ، وَأَنَّ الْمَرْءَ لَا يُمْكِنُ حَتَّى يُبْتَلَى، وَأَنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ عَلَى قَوْمِهِ، كَمَا نَصَرَ مُوسَى ﷺ عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَكَمَا نَصَرَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُعَانِدِينَ.

وَهُنَا قَصَّ اللهُ عَلَيْهِ قِصَّةَ مُوسَى ﷺ مَعَ أَكْبَرِ طَاغِيَةِ تَجَرَّأَ عَلَى اللَّهِ وَقَالَ: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} ١ ٢، وَقَالَ: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} ٣ {النَّازِعَات: ٢٤}.

وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّةَ رَجُلٍ صَالِحٍ قَامَ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِإِنْجَائِهِ مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ بِهِ، وَقَامَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَمَنَاظَرَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِأَبْلَغِ عِبَارَةٍ وَأَرْوَعَ أَسْلُوبٍ، بِكَامِلِ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ، وَالتَّذْكِيرِ بِنِعْمِ اللَّهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ



الاغترار بالدينا، والتذكير بيوم الحساب، والتحذير من عذاب الآخرة مع عدم الملل أو الخوف من فرعون؛ بل أفحَمَ فرعون وأدَحَصَ حُجَّتَهُ؛ حتى أدَّى ما عليه.

ولما أراد فرعون البطش به أنجاه الله ووقاه سيئات ما مكروا، وأهلك فرعون وجنوده، وجعل الله العاقبة للمتقين، والذلَّ والعارَ والهلاكَ على الكافرين، فقال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} {غافر: ١٢٣}؛ أي: يا محمدُ اصبرْ على أذى قومك، ولا تستعجل النصرَ عليهم؛ فقد أرسلنا موسى من قبلك بالمعجزات الباهرات كمعجزة العصا واليد وغيرهما، وبالبراهين والحجج الواضحة الدامغة إلى فرعون حاكم مصر في زمنه، وهامان وزير فرعون وبطانته، وقارون الذي كان من قوم موسى، فبغى عليه بسبب غناه وكثرة أمواله وحشمه وخدمه، وكلَّهم كفروا بموسى وما جاء به؛ عنادًا واستكبارًا مع علمهم بأنه رسولُ الله، وأنه يدعو إلى الحق المبين؛ بل قالوا عن نبيِّ الله موسى: «إنه ساحرٌ كذابٌ مدلسٌ ممَّوَّهٌ على الناس»؛ لكي يشوهوا



صورته أمام الناس، ويصرفوا الناس عنه؛ للصد عن سبيل الله، وهذه عادة الطغاة والحاسدين في كل زمان ومكان.

فلما جاءهم موسى بالدين الحق، وأيده الله بالوحي المعصوم، وبالمعجزات الباهرات وعجزوا عن مجابهة حجته، قالوا: {أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ}؛ أي: اقتلوا الأولاد الذكور، واتركوا البنات للخدمة والامتهان.

وهكذا الظالم كلما عجز عن مجابهة الحجة بالحق لجأ إلى البطش، والظلم، والقتل، والسجن؛ كيداً لأولياء الله.

{وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝٥٥} [غافر: ٥٥]؛ أي: يبطل الله كيدهم، ويحفظ أوليائه وينجيهم، ومن كتب عليه القتل منهم فهو من أهل الجنة، ولا يجد من ألم القتل إلا مثل مس القرصة، كما أخبر النبي ﷺ^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٩٥٣)، والترمذي (١٦٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرَصَةِ».

فلما حفظ الله موسى عليه السلام ومن معه من أهل الإيمان، وعجز فرعون عن مغالبة موسى قرّر قتل موسى؛ للتخلص منه ومن دعوته، وهذه عادة الطغاة إذا أرادوا محاربة دعوة الله همّوا بقتل الدعاة إليها؛ لوأدها والتخلص منها.

فقال فرعون: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى}؛ أي: اتركوني أقتله وليدع ويسأل ربه أن يُنجيه مني، فلماذا تقتله يا فرعون؟ قال مدّعياً الكذب والزور والتمويه والتدليس على الناس: {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: ٢٦].

فهنا فرعون الكافر الفاسق الظالم يلعب بعقول الناس، ويقول لهم: سأقتل موسى؛ حباً لكم، وخوفاً عليكم من شره وضرره عليكم؛ لأنني خائفٌ عليكم منه من أن يبدل دينكم، ويخرجكم من الكفر وعبادة الأوثان إلى التوحيد والسنة وعبادة الرحيم الرحمن، وهكذا يقول كل أعمى البصر مطموس البصيرة متهمّاً أهل الصلاح والاستقامة بالتطرف والإرهاب، ويحذر الناس منهم، ويدّعي أنه يريد لهم الصلاح، وكذلك أوهمهم بأنه خائفٌ عليهم



من موسى من أن يُظهِرَ في الأرضِ الفسادَ كالقتلِ والسرقةِ ونحوِ ذلك، ونسي فرعون أنه الفسادُ نفسه.

فلما همَّ فرعونُ بقتلِ موسى - وليس هناك أحدٌ من البشرِ يقدرُ على فرعونَ - وجد موسى أنه لا ملجأَ من الله إلا إليه، فلجأَ إلى ربِّه، واستغاث به، ولاذ بجنابه، واستعاذ بعظمته من بطشِ هذا الكافر، فقال: {إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} {٢٧} [غافر: ٢٧].

فاللهُ ربِّي وربُّكم، ولا يكونُ إلا ما شاء، فما شاء كان، وما لم يشأْ لم يكن، «فَإِنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَّمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَّمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(١).

فموسى عليه السلام رجلٌ قويٌّ كاملُ الإيمانِ، استعاذ بالمعاذِ الكبيرِ العظيمِ الجبارِ المتعالِ من شرِّ هذا الفرعونِ المتكبرِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

المغرور الكافر بالقيامة، فأعاده الله وحفظه وكفاه، وقبض له من آل فرعون وبطانته وأقاربه من يدافع عن موسى، ويمنع فرعون من ذلك، ويناظره أجمل مناظرة، ويدعوه إلى توحيد الله، ويقيم عليه الحجة، ويرد عليه كل ما قاله بكامل العقل الرشيد، والعلم السديد، ولم يترك له دعوى إلا رد عليه فيها بدون ملل ولا خلل.

وقد وصف الله هذا الإنسان بأنه: {رَجُلٌ}، وهي رجولة الإيمان، ومحبة الله ورسوله، وبذل كل شيء في سبيل الله تعالى.

فقال الله عنه: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟} رجل مؤمن بالله، ورسوله، وكتبه، وملائكته، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره، رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبموسى نبياً ورسولاً، مسلم مؤمن كان يكتُم إيمانه؛ خوفاً من فرعون وملئه؛ وكى يستطيع أن يعبد ربه سراً بعيداً عنهم، حتى يأتي الوقت المناسب للجهر بدينه.

قال لهم: ما جناية موسى حتى تقتلوه؟ هل تريدون قتله لأنه عبد صالح يقول: ربي الله، ويدعوكم إلى ما فيه صلاح دينكم



ودنياكم وأخراكم، {وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ}؛ أي:
بالْحُجَجِ والبراهين بوحى من الله تعالى.

ولو فرضنا أن موسى كاذبٌ فضررُ كذبه عائدٌ على نفسه لا
عليكم، وإن كان صادقاً في دعوته وعاندتموه وكفرتهم به فسوف
يصيبكم العذابُ المهيئُ في الدنيا والآخرة؛ فإن الله لا يُوقِّعُ
المُسرِفَ المتجاوزَ الحدَّ في الشركِ والكفرِ والعصيانِ، ولا الكذابَ
الذي يكذبُ على الله ورسوله وعلى الناسِ.

وبعدَ أن بيَّنَ لهم هذه الحقيقةَ التي لا بدَّ منها أقبلَ عليهم
يُعْظِّمُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ بنعمِ الله عليهم، ويخوِّفُهُمْ بما حلَّ بالأُممِ قبلَهُم
لَمَّا كَذَّبُوا الرسلَ، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، ويحذِّرُهُم من عذابِ
الآخرة، فقال: {يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ
يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا}؛ أي: أنتم اليومَ أصحابُ المُلْكِ
والسُّلطانِ في كاملِ أرضِ مصرَ، فلو كَذَّبْنَا موسى لأنزَلَ اللهُ بَأْسَهُ
علينا، وحينها لا نجدُ مَنْ يَنْصُرُنَا أو يدفعُ عنا.



كلامٌ في غايةِ البلاغةِ، والموعظةِ، والتأثيرِ، والإعجازِ، فلما عجز فرعونُ عن ردِّ هذه الحجةِ أخذته العزَّةُ بالإثمِ، وقال: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} {غافر: ٢٩}؛ أي: أنا أدرى بمصلحتكم، وما أراه وأقولُه هو الحقُّ والصوابُ الهادي إلى الرَّشادِ.

وكذبَ فرعونُ، {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} {طه: ٧٩}! وبعدَ أن قال المؤمنُ ما قال، ثم أجاب فرعونُ بجهله بهذا الردِّ السخيفِ لم يكتفِ المؤمنُ بما قال، ولم يسكت عن افتراءِ فرعونَ، ولا أقرَّه على ضلاله وكذبه؛ بل قام قومةَ المجاهدِ الذي لا يخشى في الله لومةَ لائمٍ؛ ليقول كلمةَ حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ، فقام خطيباً مفوهاً بارعاً قوياً راسخاً، فقال: {يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} ٣٠ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} ٣١ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ} ٣٢ يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} ٣٣ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ



بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ { [غافر: ٣٠، ٣٥].

أي: يا قومي - يا أحبابي - إني أخاف عليكم من أن يحلَّ عليكم عذابُ الله إن كذبتُم موسى، كما حلَّ على من كان قبلكم حينما كذبوا أنبياءهم، مثل قوم نوح أهلكهم الله بالطوفان لما كذبوا نوحًا، وقوم هود أهلكهم الله بالريح الصَّرصِرِ في يومٍ نحسٍ مستمرٍّ، فاقتلعتهم من جذورهم، وصاروا صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاويةٍ لما كذبوا هودًا، وقوم صالح أهلكهم الله بصاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون؛ بسبب تكذيبهم لصالح ﷺ.

فالله جل وعلا ما أهلك هؤلاء إلا بكمال عدله، وما رحِم غيرهم إلا لكمال رحمته، فأحكامُ الله تدورُ بين العدل والفضل، إن رحِم عباده بفضله، وإن عذبهم فبعده؛ لأنَّ الله مُنَزَّهٌ عن الظلم،



{ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ } [غافر: ٣١]؛ لأن الظلمَ صفةٌ نقصٍ،
والله جل وعلا منزّه عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو
السُّبُّوحُ القدُّوسُ المنزّهُ المطهَّرُ المبرَّأُ من كلِّ عيبٍ سبحانه
وتعالى، له الأسماءُ الحسنى، والصفاتُ العلى.

ثم ذكّرهم بيومِ القيامةِ وما فيه من الأهوالِ، والعرضِ على الله،
والوقوفِ بين يديه للحسابِ، فيومُ القيامةِ يومُ التنادي: { وَيَوْمَ
يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [القصص: ٦٥]، { وَنَادَى
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا
فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ } [الأعراف: ٤٤]، { وَنَادَى
أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ } [الأعراف: ٤٨]، { وَنَادَى
أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ } [الأعراف: ٥٠]، { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ
كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [القصص: ٧٤]، { وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [الأعراف: ٤٣]، { وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ
السُّعْفَتِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ



عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ { غافر: ٤٧ }، { وَنَادَاُ يَمْلِكُ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴿٧٧﴾ } { الزخرف: ٧٧ }.

فيومُ التنادِ يومٌ يناديهم ربُّهم، ويومٌ ينادي أصحابُ الجنةِ أصحابَ النارِ، ويومٌ ينادي أصحابُ النارِ أصحابَ الجنةِ، ويومٌ ينادي المجرمون بعضُهم بعضًا ويتبرأ بعضُهم من بعضٍ، ويومٌ ينادي المجرمون مالكا لرفعِ العذابِ، وتنادي الملائكةُ أهلَ الجنةِ بالسَّلامِ عليهم، وتبشِّرهم بالخيرِ، ويومٌ ينادي الظالمون رسولَ الله: يا رسولَ الله أغثنا! فيقول: «لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ»^(١). ونحو ذلك من النداءات.

وكذلك يومُ القيامةِ يومُ التنادِ (بتشديد الدال)؛ أي: المهرب، {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾} {عبس: ٣٧}.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).



ولهذا قال: {يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ} [غافر: ٢٣]؛ أي: إن دمتم على الكفر بموسى ودينه فما لكم من الله من عاصمٍ يَعِصُّكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وأنكم إذا لم تؤمنوا وتأخذوا بأسباب الهداية فسوف يُضِلُّكم الله، وتكونون من أهل الشقاوة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ}، وقال سبحانه وتعالى: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ»^(١)؛ أي: يا عبادي اطلبوا الهداية وخذوا بأسبابها، وأنا أمنحكم إيّاها.

ثم لما وجدهم معاندين غير متعظين بموعظته، ولا مهتدين بهديه قال لهم: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ}؛ وهي الدلائل الواضحة على صدق نبوته، وأمركم بعبادة الله وحده، فما زلتم مرتابين مما جاءكم به في حياته، حتى إذا مات ازداد شككم وشرككم وقلتم: {لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا}، وهذا هو

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).



الضلال الذي يُضِلُّ الله به كلَّ مسرفٍ متجاوزٍ للحدِّ في الشرك والعصيان، مرتابٍ شاكٍّ في وحدانية الله واتباع رسوله.

فالذين يجادلون ويخاصمون في آياتِ الله لإبطالها بدونِ حجة ولا برهانٍ كبر جدالهم بالباطلٍ مقتًا وبغضًا عند الله وعند الذين آمنوا، فكما طبع الله على قلوبِ آلِ فرعون، كذلك يطبعُ الله على كلِّ قلبٍ متكبرٍ في نفسه برده للحقِّ واحتقاره للناس، وعلى قلبٍ كلِّ جبارٍ بكثرة ظلمه وعدوانه.

وهكذا يرُدُّ المؤمنُ على فرعون وقومه، ويدعوهم إلى التوحيد والسنة، ويقيمُ عليهم الحجة، ويعجزُ فرعون للمرة الثانية عن الردِّ والجواب، فيلجأ إلى التمويه والتدليس؛ لإبعاد الناس عن كلام المؤمن ودعوته، ويريدُ صرفَ القضية والحوارِ إلى جهةٍ أخرى بعيدة، فيقولُ لوزيره الضالَّ هامان: {يَهْلَمُنْ أَبْنِي لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَبَ} [غافر: ٣٦]؛ أي: بناءً عاليًا، وبرجًا عظيمًا يوصلني إلى أبواب السموات؛ لأنظرُ بنفسي إلى إله موسى، وأتحقق



وجوده من عدمه، وإني لأظنُّ موسى كاذبًا في دعواه أنَّ لنا ربًّا، وأنه فوق السموات.

وهكذا زَيَّنَ لفرعونَ عمله السيِّئ، فرآه حسنًا، وصَدَّ عن سبيل الحقِّ والهدى، وما احتيالُ فرعونَ وتدليسه على الناسِ لإيهامهم أنه على الحقِّ وأن موسى على الباطلِ إلا في خسارةٍ وهلاكٍ وضلالٍ.

ولكنَّ المؤمنَ المجاهدَ الذكيَّ الرشيدَ لم يتركْ لفرعونَ الفرصة لتضييع القضية، وطَمَسِ الحقَّ، وإنما أكمل خطبته، وبيَّن حجته، واسترسل في بيانه فقال: {يَقَوْمُ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾} [غافر: ٣٨]؛ أي: اتبعوا الحقَّ الذي أقوله لكم، والذي جاء به موسى بإخلاصِ العبوديةِ لله واتباعِ رسوله، فإني أدلكم وأرشدكم إلى طريق الهدى والصواب، فالخيرُ كُلُّ الخيرِ في اتباعِ الأنبياء والمرسلين، والشرُّ كُلُّ الشرِّ في اتباعِ الكفارِ والمشرِّكين والمبتدعين.

ثم بيَّن لهم حقارة الدنيا وزوالها، وأنها ليست دارَ مقرٍّ، وإنما



هي أيامٌ معدوداتٌ، ثم تَفْنَى وتَبِيدُ، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝} [الرحمن: ٢٧].

وقال: {يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ} [غافر: ٣٩]؛ أي: متاع زائل، {وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝}، فالآخرة هي دار الحياة الأبدية الدائمة الحقيقية، إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

والسعيد فيها مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا، وَخُتِمَ لَهُ بِخَيْرٍ، فأولئك الفائزون بالجنة يُرْزَقُونَ وَيُنْعَمُونَ فيها بِغَيْرِ حِسَابٍ؛ لأن الجنة فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال الله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝} [السجدة: ١٧].

والشقي فيها من كفر بالله ورُسُلِهِ، أو أشْرَكَ بِاللَّهِ وَعَمِلَ السَّيِّئَاتِ، فالجزاء من جنس العمل.

وكأنَّ قومَه أرادوا منه السكوت عما يَقُولُهُ، أو أنهم دَعَوْهُ إِلَىٰ بَاطِلِهِمْ، فرد عليهم قائلاً: {وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُم إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝} تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا



لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ {غافر: ٤٢}؛
يقول: عجباً لكم! أنا أدعوكم إلى رضوان الله والجنة وسعادة
الدارين باتباع الرسل، وأنتم تدعونني إلى الكفر والشرك والبدعة،
{أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾} {الأنبياء: ٦٧}.
فالذي تدعونني إليه من الشرك والكفر والضلال ليس عليه
دليل ولا برهان ولا دعوة حق، فالحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكُم
به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً.

واعلموا أننا جميعاً سنرُدُّ ونرجع إلى الله، ونُعرض عليه، ونقفُ
بين يديه، ويسألنا عما قدمنا في هذه الحياة الدنيا، ويحاسبنا
ويجازي كلَّ عاملٍ بعمله، {فَمَنْ زُحِزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ
فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾} {آل عمران: ١٨٥}.

واعلموا أن المسرفين في الشرك والكفر والبدع والمعاصي هم
الأشقياء سكان النار يوم القيامة، يُعَذَّبُونَ فيها العذاب المُهين،
يصرخون ويُحرقون ويستغيثون ولا يُغاثون، خالدون فيها أبد
الآبدين.



ويومَ القيامةِ ستذكرون أني نصحتُ لكم، وذكّرتكم بالله،
وستندمون حيث لا ينفعُ الندمُ، وقد أدّيتُ ما عليّ نحوكم،
وتوكّلتُ على الله ربّي وربّكم، وفوّضتُ الأمرَ إليه فيّ وفيكم؛ إنه
سميعٌ قريبٌ بصيرٌ بعباده لا تخفى عليه خافيةٌ يسمعُ كلامي، ويرى
مكاني، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وكان فرعونَ أراد أن يبطشَ به؛ ولكنَّ الله سبحانه وتعالى حفظه
ورعاه، وآواه وكفاه، ولم يمكّن فرعونَ وقومه منه، {فَوَقَّلهُ اللهُ
سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾} [غافر: ٤٥] في
الدنيا وفي القبر وفي الآخرة.

ففي الدنيا: أغرقه الله ومن معه جميعاً، وجعلهم عبرةً
للمعتبرين إلى يوم الدين.

أما في القبر: فيعرضون على النار صباحاً ومساءً يُحرقون فيها.
وأما في القيامة فيقال للملائكة: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾} [غافر: ٤٦]، فليس لهم عند الله إلا النكال والعذاب
المهين، وهذه عاقبة الظالمين المفسدين أعداء أولياء الله من

الرسل والأنبياء والمؤمنين الصادقين، كما قال سبحانه وتعالى:

«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»^(١).

فالحمدُ لله الذي نجَّى موسى ومؤمن آلِ فرعونَ، وأهلك

الظالمين، وجعلهم عبرةً للمعتبرين!

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

المبحث الرابع الفوائد والعبر من قصة مؤمن آل فرعون

قد اشتملت قصة مؤمن آل فرعون على فوائد ودروس كثيرة،
نذكر منها ما يأتي:

١- الاستعانة على قضاء الحوائج بالكتمان؛ لقول النبي ﷺ:
«اسْتَعِينُوا عَلَىٰ إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ
مَّحْسُودٌ»^(١).

فمؤمن آل فرعون آمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبموسى ﷺ
نبياً ورسولاً، وكنتم إيمانه إلى الوقت المناسب لإظهاره؛ لأن هذا
الرجل كان من قوم فرعون، فلو أظهر إيمانه قبل ذلك لكانت
المضرة عليه شديدة، كما حصل لماشطة ابنة فرعون من القتل
والعذاب.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٤٥٥)، وصححه الألباني في السلسلة
الصحيحة (١٤٥٣).



فكلما استعان الإنسان بالكتمان على قضاء حوائجه كان ناجحاً بعيداً عن أعين الحاسدين الحاقدين أعداء النجاح، علاوة على أن الكتمان في قضاء الأمور أدعى للإخلاص.

٢- اختيار الوقت المناسب لإظهار الحق والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ونصرة المستضعفين؛ فمؤمن آل فرعون أخفى إيمانه إلى الوقت المناسب؛ حيث إن فرعون لعنه الله هم بقتل نبي الله موسى ﷺ، وقال: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى}، فقام هذا الرجل البطل المؤمن الشجاع مدافعاً عن موسى ﷺ، وخطبهم خطبةً بليغةً عظيمةً مؤثرةً، فيها الحجة والبيان.

٣- تحيُّن الفرص لتعليم العلم والدعوة إلى التوحيد ومنهج

الأنبياء: فهذا العبد المؤمن المجاهد وجد الفرصة سانحة لإظهار الحق وبيانه، والدفاع عن منهج الأنبياء، فلم يؤخرها ولم يتردد، وكان واثقاً بالله متوكِّلاً عليه أن الله سيحفظه، ويدرك به الظلم عن نبي الله موسى ﷺ.



٤- حرمة تأخير البيان عن وقت الحاجة؛ فلو أخر هذا المؤمن دفاعه عن نبي الله موسى وبيان الحق بالحجة الدامغة لقتل موسى .

٥- أهمية السرية في الإيمان والدعوة إلى الله في بعض الأحيان، وبعض الأماكن؛ جلباً للمصالح ودرءاً للمفاسد حتى يأتي الوقت المناسب للجهر والصدع بالإيمان والدعوة إلى الله تعالى.

ومثال ذلك ما فعله النبي ﷺ في أول دعوته، فقد دعا إلى الله سرّاً في أول ثلاث سنوات كما أمره الله، ثم أمره بعدها بالصدع والجهر بالدعوة، فقال: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤]، وقال: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] فصعد النبي ﷺ على جبل الصفا، وقال: «يَا صَبَاحَاهُ». فاجتمع الناس، فقال لهم: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟». قالوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَّ لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَتَرَكْتُ: وَتَبَّتْ يَدَا أَبِي



لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١٠﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿١١﴾ { [المسد: ١٠، ١١] }^(١).

فقد أمره الله بالسرية في أول الأمر؛ مراعاةً للحكمة في نشر الإسلام، حتى صار له أتباع وأنصار، ونزل عليه ما نزل من الوحي، وثبتت أقدامهم على الإسلام، ثم أمره بعد ذلك بالجهر والصّـدع؛ لأنه لو أظهر الدعوة للإسلام مباشرةً لربما لم ينتشر الدين، وكانت المفسدة أعظم من المصلحة.

فعن حَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ رضي الله عنه قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بَرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِأَنْتَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيَمْشِطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٠).



الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

ومع الصبر عاد النبي ﷺ إلى مكة فاتحاً منتصراً قوياً عزيزاً، ودخل الناس في دين الله أفواجا، بعد أن أخرجوه منها.

٦- وجوب الدفاع عن القرآن والسنة والأنبياء والرسل والعلماء والمصلحين من أهل السنة والجماعة؛ فلما أراد فرعون قتل موسى ﷺ انبرى هذا المؤمن القوي مدافعاً عن موسى ودعوته ورسالته وكتابه وسنته.

ومثل ذلك ما حصل من مؤمن آل ياسين، لما أراد الناس أصحاب القرية أن يقتلوا الرسل الثلاثة جاء هذا الرجل المؤمن من أقصى المدينة مدافعاً عن الرسل، وداعياً إلى التوحيد حتى قتله قومه، قال الله تعالى: {وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ} ١٣ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَفْقَوْمُ اتَّبِعُوا

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لِي
لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ
يُرِدُّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿١٣﴾
إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾ قِيلَ
أَدْخِلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلِكَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي
مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٧﴾ {يس: ١٣، ٢٧}.

ولما همَّ المشركون بقتل النبي ﷺ وإيذائه قام أبو بكر الصديق
ﷺ مدافعاً ومنافعاً عن رسول الله ﷺ، وقال لهم: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا
أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} (١).

وهكذا الصحابةُ كلُّهم من المهاجرين والأنصارِ فدوا
رسولَ الله ﷺ، ودينه ودعوته بأنفسهم وأموالهم وكلَّ ما يملكون
رضي الله عنهم جميعاً، وعلى سبيلِ المثال: ما جرى في غزوة أُحُدٍ
من طلحةَ بنِ عبيدِ الله، ومن أبي دُجانةَ سِماكِ بنِ خرشةَ، ومن أبي

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٨).



بكرٍ وغيرهم ﷺ^(١).

وها هو رسول الله ﷺ يعلم الأمة كيف تدافع عن أهل الإيمان، لما أساء البعض الظنَّ بخالد بن الوليد والعباس، وقالوا: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم الرسول؛ أي: الصدقة، فقال النبي ﷺ: «وَأَمَّا خَالِدٌ: فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدْ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَدَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَعَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَهِيَ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ وَمِثْلُهَا مَعَهَا»^(٢).

ولما قال رجلٌ عنده: إن مالك بن الدخشنٍ منافقٌ يدافع عن المنافقين، دافع عنه النبي ﷺ، وقال: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ». قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّ

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٨٦/٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٨).



اللَّهُ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ
اللَّهُ»^(١).

وهذا معاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه يدافع عن كعب بن مالك رضي الله عنه، لما قال
رجلٌ في حقِّه: حَبَسَهُ بَرْدَاهُ، وَنَظَرَهُ فِي عِطْفِهِ! فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ:
بُئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.^(٢)

ولما قالت عائشة رضي الله عنها في حقِّ صَفِيَّةَ رضي الله عنها: «حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا
وَكَذَا» - قَالَ غَيْرُ مُسَدِّدٍ: تَعْنِي قَصِيرَةً - فَقَالَ ﷺ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً
لَوْ مُزِجْتَ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجْتَهُ»^(٣)؛ أي: لو خلطت بماء البحر
لغيرته ولأنتنته.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥).



قال النبي ﷺ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عَرَضٍ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ ﷻ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)؛ أي: من دافع عن أخيه وردَّ غيبتَه أو البُهتانَ في حقِّه فاللهُ جلَّ وعلا يُدخِلُه الجنةَ وينجيهِ من النار.

وقال النبي ﷺ: «مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا عِنْدَ مَوْطِنٍ تُتَّهَكَ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرَضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ ﷻ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرَضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ ﷻ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَتَهُ»^(٢).

٧- من أعظم وسائل التربية والتعليم والدعوة إلى الله التذكير بنعم الله، والترهيب من عذاب الله؛ فقد ذكر مؤمن آل فرعون الناس بقوله: {يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ} ذكرهم بنعم

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٦٣٠).

الله عليهم، وتمكينهم في الأرض، فهم أصحاب الملك والجاه والسلطان ورغد العيش، ثم رهّبهم وخوّفهم من الله بقوله: {فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا}؛ أي: إذا لم ننتد بهدى الله ورسوله نخشى أن ينزل علينا عذاب الله، وإذا نزل فمن يستطيع أن يدفعه؟ أي: فلا بد من الإيمان بالله، وتصديق رسوله وإكرامه؛ حتى يديم الله علينا النعم، ويصرف عنا النقم، قال تعالى: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمِ اللَّهِ} [إبراهيم: ٥]؛ أي: بنعم الله عليهم.

وقال سبحانه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧].

وقال تعالى: {مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]، وقال: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ} [٢٣] وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى} [٢٤] [طه: ١٢٤].



٨- المَعْلَمُ الْحَقُّ والداعي المَخْلِصُ لَا يَمَلُّ من تَكَرُّرِ الدَّعْوَةِ
وتذكيرِ النَّاسِ بِاللَّهِ مهما خالفوا وعاندوا، فهذا مؤمن آل فرعونَ
قال: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا
يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
كَذَّابٌ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرِينَ فِي الْأَرْضِ..}، وقال:
{يَقَوْمَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣١﴾} [غافر: ٣٠]، وقال:
{وَيَقَوْمَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾} [غافر: ٣٢]، وقال: {يَقَوْمَ
اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾} [غافر: ٣٨]، وقال: {يَقَوْمَ إِنَّمَا هَذِهِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾} [غافر: ٣٩].
ونظير ذلك ما جرى لنبيِّ الله نوحٍ الذي دعا قومه ألف سنةٍ إلا
خمسين عامًا ليلاً ونهارًا، سرًّا وجهارًا، ترغيبًا وترهيبًا بغير مللٍ،
حتى أخبره الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمنَ، فهنا دعا
عليهم؛ لعظيم فسادهم وفجورهم وكفرهم.



وهذا حال أئمة الهدى من الأنبياء وأتباعهم ممن سار على نهجهم، وأتبع سبيلهم.

٩- الرفق واللين والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة: فهذا الرجل المؤمن الحكيم خاطب قومه بلفظ فيه الرفق بهم، والخوف عليهم من غضب الله تعالى: {يَقَوْمُ} ست مرات كما ورد في الآيات، مما يدل على شفقتهم عليهم، وهكذا يكون حال الداعي إلى الله، يرجو لقومه الخير، كما قال الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]، وقال: {فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ يَكُنْ فَعَلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩]، وقال لموسى وهارون: {ادْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾} [طه: ٤٤].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُسَيِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٢٢٠).



وقال ﷻ: «لَمْ يَدْخُلِ الرَّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَمْ يُنْزَعْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^(١).

١٠ - التحذير من الكبر وعاقبة المتكبرين: فما منع فرعون وقارون وهامان من اتباع موسى والاقتناع بكلام العبد المؤمن إلا الكبر؛ ولذلك قال موسى عليه السلام: {إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} [غافر: ٢٧]، وقال المؤمن: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر: ٣٥].

فالكبر: هو استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له.

والتكبر: هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره، وأرفع مقامًا، وأجل قدرًا، وينظر إليهم نظرة ازدراء، فالتكبر مغرورٌ معجبٌ بنفسه ورأيه.

(١) أخرجه أحمد (١٣٥٣١).

وَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الْكِبَرِ؟ فَقَالَ: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١)؛ أي: ردُّ الحقِّ وعدمُ قبوله، واحتقارُ الناسِ.

والكبرياءُ في صفاتِ الله مدحٌ، وفي صفاتِ الخلقِ ذمٌّ، قال الله تعالى: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ جَهَنَّمَ»^(٢).

والكبرُ صفةُ إبليسِ الملعونِ: {أَبْنَى وَأُسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤].

وهو صفةُ المجرمينِ الهالكين، قال تعالى: {وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} [٣٨] وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَلَمَّنَّ^{٣٩} وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} [العنكبوت: ٣٨، ٣٩].

الكبرُ سببُ الإعراضِ عن الحقِّ، وحرمانِ العلمِ والفهمِ

(١) أخرجه مسلم (٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٨٨٩٤).

والعمل، قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٦٦﴾} [الأعراف: ١٤٦-١٦٦].

الكبير يُسْقِطُ العبدَ من نظرِ الله ورحمته، قال النبي ﷺ: «لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءً»^(١).

وهو سبب دخول النار والخلود فيها والحرمان من الجنة، قال النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٢)، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ أَكْبَهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ»^(٣).

وقال سبحانه: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْذُوبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٧٠١٥).

عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٦٠﴾ { [الأحقاف: ٦٠] .

وقال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِيحتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾}

[الزمر: ٧٢] .

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾}

[الأعراف: ٤١] .

وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾}

[غافر: ٦٠] .

وقال سبحانه: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي ۖ وَيَسْتَكْبِرْ



فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا
وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ {النساء: ١٧٣}.

وقال النبي ﷺ: «وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر
أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»^(١).

وبين الله عاقبة المتكبرين، فقال: {وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ
كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ
﴿٦٠﴾ {الزمر: ٦٠}، وقال تعالى: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾}
[النحل: ٢٣].

١١- بيان عاقبة الفسقة أتباع المتكبرين وأذاليهم: قال الله عن
فرعون وجنوده: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾} [الزخرف: ٥٤]، فلما أطاعوه على فسادهم وكفرهم وقله أدبه

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَإِيَّاهُ، قَالَ سُبْحَانَهُ: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ
الْعَذَابِ ٤٥} النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٤٦} {غافر: ٤٦}، وقال: {فَأَخَذْنَاهُ
وَجُودَهُ فَتَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ٤٧} {الذاريات: ٤٧}، وقال سُبْحَانَهُ:
{يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣} إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
سَعِيرًا ٦٤} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٦٥} يَوْمَ
تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَنَّا أَطْعَنَا اللَّهُ وَأَطْعَنَا
الرُّسُلَا ٦٦} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا
السَّبِيلَا ٦٧} رَبَّنَا عَاتَيْنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا
٦٨} {الأحزاب: ٦٨}.

وفي القيامة يتبرأ المتكبرون رؤوس الفساد ممن تبعوهم في
الدنيا، ويتحسر الأتباع الفسقة على اتباعهم لأهل الفساد الذين
كانوا سبباً في هلاكهم، قال الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ



وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١١٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّنَا كَرَّةً فَنتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّعُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١١٧﴾ { [البقرة: ١١٧-١١٦].

وقال سبحانه: {وَبَرَّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ نَحِيصٍ ﴿١١٨﴾} [إبراهيم: ٢١].

١٢- الدعوة إلى الله تعالى بالترغيب بذكر أسماء الله الحسنى الدالة على عظيم عفوه وغفرانه مع عزّته وغناه عن خلقه: قال المؤمن لفرعون وقومه: {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾} [غافر: ٤٢]؛ تذكيراً لهم باسم الله الغفار الذي يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب ورجع إلى الله، مهما كانت ذنوبه كبيرة أو كثيرة.



١٣- **فضل التوكل على الله وأثره على أصحابه:** لما قام مؤمن آل فرعون ودافع عن موسى وصدع بدعوة فرعون وقومه كان توكله على الله وثقته به عظيمة، باعتماده عليه في تبليغ الدعوة، ونجاة موسى من القتل، وإقامة الحجة على قومه بأسلوب حكيم يكون سبباً في دفع الأذى عنه وعن موسى، فكانت النتيجة أن الله أقام به الحجة على قومه، وأن أنجاه الله ووقاه هو وموسى سيئات ما مكروا، وحق بالفرعون سوء العذاب.

١٤- **الميزان عند الله تعالى بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، وليس بالحسب والنسب والجاه والسلطان والمال:** قال الله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ} [الحجرات: ١٣]؛ ولذلك لم يهتم القرآن بذكر اسم مؤمن آل فرعون ولا نسبه، وإنما ذكر أنه رجل مؤمن.

وفي هذا أعظم تنبيه لتربية المؤمنين على الإخلاص لله تعالى، والعمل للدين، لا للشهرة ولا لحظ النفس.



١٥- وجوب الحرص على بقاء الدعوة وسلامة الدعاة إلى الله وصيانتهم من المجرمين: وهذا ما حصل من هذا الرجل المؤمن الذي خلد الله ذكره في القرآن العظيم، لما أراد فرعون قتل موسى للتخلص من دعوته للتوحيد قام هذا الرجل في حكمة وجراءة وقوة بالغه رشيدة، وقال: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ} [غافر: ٢٨].

وهذا الموقف الجريء الحكيم كان له أعظم الأثر على نفوس الصحابة في محبتهم ونصرتهم لرسول الله ﷺ وفدائه بأرواحهم وأموالهم، وكيف كانوا يحرسونه، ويحيطون به في سلمه وحره؛ صيانته له وحفاظاً عليه، كما حدث في غزوة بدر وغزوة أحد وغيرهما.

وعن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة؛ إذ أقبل عقبه بن أبي معيط فأخذ بمنكب



رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ ي تَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ بِهِ خَنَقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: { أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ }^(١).

وهكذا فالواجبُ على المسلمين أن يعملوا جاهدين على بقاء دعوتهم بالذَّبِّ عن علمائهم وإعانتهم على تسهيل السُّبُلِ للدعوة إلى الله تعالى.

١٦- التدرُّجُ في إقامة الحجة على المدعوين خاصة المُعاندين:

فالتدرُّجُ في التشريع من أعظمِ سماتِ هذا الدين، فالله جل وعلا بدأ بالأهمَّ في الدعوة والتعليم، وهو الدعوة والتربية على التوحيد بترسيخ العقيدة الصحيحة وأركان الإيمان، ثم بعد ذلك شرع لهم تشريعاتٍ واحدةٍ تلو الأخرى بالتدرُّج من الصلوات الخمس، ثم الزكاة، والصيام، ثم الحج... إلخ.

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٥).



حتى في التحريم هناك أشياء حُرِّمت من غير تدرُّج، وهناك أشياء حُرِّمت على مراحل، كالخمر فقد حُرِّمت على ثلاث مراحل، وكذلك الرِّبَا.

وَمِنْ هَٰذِهِ النَّبِيُّ ﷺ البداية في التعليم بالدعوة إلى التوحيد، ثم الصلاة، ثم الزكاة، ثم بقية الشرائع، فعن معاذ بن جبل أن النبي لما أُرْسِلَهُ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ مُعَلِّمًا وَدَاعِيًا قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَرْتَدُّ عَلَىٰ فَقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦).

وقد سلك هذا الرجلُ المؤمنُ سنةَ التدرُّجِ في الدعوةِ إلى الله، والدفاعِ عن نبيِّ الله موسى، وإقامةِ الحجةِ بطريقةٍ عقليةٍ منطقيةٍ تدورُ بين الترغيبِ والترهيبِ والتذكيرِ بما حصل للمكذِبين للرُّسل، والتذكيرِ بالقيامةِ وما فيها من أهوالٍ، فبدأ يرهِّبهم من زوالِ نعمِ الله عليهم، وحلولِ نقمِهِ بهم فقال: {يَقَوْمُ لَكُمْ أَلْمَلُكُ أَلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا}.^(٢٩)

ثم ذكَّروهم بتاريخِ مصرَ نفسها وتشكيكِ مَنْ سبَّوهم في دعوةِ يوسفَ، ولولا أنهم آمنوا لهلكوا، فقال: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} [غافر: ٢٤].^(٣٠)

ثم ذكَّروهم بتاريخِ الأممِ قبلهم وما حلَّ بهم من الهلاكِ بسببِ تكذيبهم للرسل، فقال: {يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} [مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ] [غافر: ٣١].^(٣١)



ثم ذكّرهم بعذاب الآخرة، وأن أحدا لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح المبني على اتباع الرسل، فقال: {وَيَقُومَ إِلَىٰ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣١﴾ يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِّنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٢﴾} [غافر: ٣٣].

١٧- العمل للدين مسؤولية الجميع: ليس الأنبياء والرسل وحدهم المسؤولين عن الدين؛ بل هو مسؤولية أتباع الرسل، قال الله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٨﴾} [يوسف: ١٠٨].

فالرسول ﷺ ومن تبعه على دينه يجب عليهم الدعوة إلى الله على علمٍ و يقينٍ وحكمة.

فهذا الرجل المؤمن قام بحق الله في الدعوة إلى الله والدفاع عن دعاته وأوليائه مع وجود نبيين كريمين عظيمين، وهما موسى وهارون عليهما السلام، فمع وجودهما قام بما يجب عليه من حق الله في نصرته دينه، والذب عن أوليائه، كما حصل من الرجل الهمام والبطل المقدام مؤمن آل ياسين، لما أراد أهل القرية قتل الرسل



الثلاثة جاء ساعياً مسرعاً؛ للدفاع عن الرسل ودعوتهم، فدعاهم بالحسنى، وأقام عليهم حجة الله تعالى حتى قتلوه شهيداً، وكان من أهل الجنة، ثم أهلكهم الله بسبب قتلهم لهذا الرجل، قال الله تعالى: {وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطِيرُكُمْ بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَبِن ذِكْرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاء مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَعْتَذِرُ مِنْ دُونِهِ ۖ إِنَّهُ إِلَهُ ۚ إِنَّ يُرِدِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۚ قَالَ يَلِيَّتْ قَوْمِي يَعْلمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا



أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ

﴿١٩﴾ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٠﴾ [يس: ١٩، ٢٠].

فَمَعَ وجودِ الرسلِ الثلاثةِ وجد عليه اللهُ حقاً في الدعوةِ إلى الله والدِّفاعِ عن رسلِ الله، وهذا هو الواجبُ على كلِّ مسلمٍ حسب استطاعته؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١).

ولذلك قال اللهُ تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ

وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: ٣٣].

وقال النبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٧).



وقال ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»^(١)،
وقال ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ
اللَّهُ بِعِقَابِهِ»^(٢).

١٨- حُسْنُ عَاقِبَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَسُوءُ عَاقِبَةِ الظَّالِمِينَ: المؤمنُ في
كُلِّ أَحْوَالِهِ فَائِزٌ، إِنْ قُتِلَ شَهِيدًا كَمُؤْمِنِ آلِ يَاسِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَجِدْ مِنْ
الْأَلَمِ إِلَّا مِثْلَ مَسِّ الْقَرْصَةِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَيَنْعَمُ فِي قَبْرِه
كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيَكُونُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْفَائِزِينَ الشَّافِعِينَ،
وَإِنْ وَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ الْمَاكِرِينَ وَأَنْجَاهُ مِنْ شَرِّهِمْ كَمُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ
فَهُوَ النَّاجِي فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْقَبْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَهُ الْأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ.
وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ وَالظَّالِمُ الْمَتَكَبِّرُ فَهُوَ الْخَاسِرُ فِي الدُّنْيَا،
وَفِي الْقَبْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ، فَفِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا بِالذِّلِّ
وَالْغَرَقِ، وَحَرَمَهُمُ الْجَنَاتِ وَالْعِيُونَ وَالْمَقَامَ الْكَرِيمَ، وَعَذَّبَهُمْ فِي

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (١).



قُبُورِهِمْ بَعْرَضِهِمْ عَلَى النَّارِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: {الَّتَارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
عُدُودًا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ
{٤٦} [إِغْفِر: ٤٦].

١٩- أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ: وهذا ما حصل
من مؤمن آل فرعون مع فرعون، وهذه القصة تُفسِّرُ المفهوم
الصحيح لهذا الحديث.

فكلمة الحق هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة
إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بالرفق واللين، بالترغيب
والترهيب، بالتذكير بنعم الله وبالأخرة، وبعاقبة الظالمين مع لزوم
حسن الأدب، وحسن الخلق.

ومعنى: «عند سلطان جائر»؛ أي: عنده في بيته أو قصره، وليس
بالتشهير به في الميادين العامة، أو الصحف والمجلات، ووسائل
الإعلام والتواصل.

وهذا نظير قول الله تعالى لموسى وهارون: {أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ
إِنَّهُ طَغَى} {٤٣} فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} {٤٤}



فكلمة الحق هي القول اللين.

وعند سلطانٍ جائرٍ: هي إلى فرعونَ في قصره ومكانه، وأما ما يفعله الثوريون من الشتائم والقبايح في العلن أو على المنابر وغيرها فليس من هدي الله ولا رسوله ﷺ.

٢٠- جواز كتم الإيمان لمن خاف على نفسه الهلاك: من كان يعيش بين قوم كفارٍ لا يسمحون له بإظهار إيمانه، ولو أظهره لقتلوه؛ جاز له أن يداريهم بلسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ دفعاً للضرر والأذى عن نفسه، من غير أن يرتكب المحرمات.

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من بلغته دعوة النبي ﷺ في دار الكفر، وعلم أنه رسول الله فآمن به، وآمن بما أنزل عليه، واتقى الله ما استطاع كما فعل النجاشي وغيره، ولم تمكنه الهجرة إلى دار الإسلام، ولا التزام جميع شرائع الإسلام؛ لكونه ممنوعاً من الهجرة، وممنوعاً من إظهار دينه، وليس عنده من يعلمه جميع

شرائع الإسلام؛ فهذا مؤمنٌ من أهل الجنة، كما كان مؤمنٌ آل فرعون مع فرعون، وكما كانت امرأة فرعون...»^(١).

وهذا يطابق الأصل الذي عليه السلف والجمهور: أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فالوجوب مشروطٌ بالقدرة، والعقوبة لا تكون إلا على ترك مأمورٍ أو فعلٍ محظورٍ بعد قيام الحجة.

وقال رحمه الله في موضع آخر: «ليس مذهب السلف مما يتستر به إلا في بلاد أهل البدع، مثل بلاد الرافضة والخوارج، فإن المؤمن المستضعف هناك قد يكتُم إيمانه واستنانه، كما كتُم مؤمن آل فرعون إيمانه، وكما كان كثير من المؤمنين يكتُم إيمانه حين كانوا في دار الحرب»^(٢).

٢١- منزلة الإيمان وأهميته: قصة مؤمن آل فرعون تدور حول منزلة الإيمان وأهميته، فهذا رجل آمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً،

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١٧ / ١٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤٩ / ٤).



وبموسى نبياً ورسولاً، وآمن بجميع أركان الإيمان الأخرى، بالكتب، والرسول، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والملائكة، وكنتم إيماناً للمصلحة، ثم أعلنه عند الحاجة؛ تضحيةً بنفسه من أجل بقاء إمام الدعوة في زمنه نبي الله موسى ﷺ ودعوته، وشهادة الله له بالإيمان لأكبر دليل على صلاح الرجل، وكمال إيمانه، وبقينه وتوكله، وثباته.

{وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ}، {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ}؛ أي: أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعات وينقص بالذنوب.

٢٢- الهدى والضلال بمشيئة الله وحده، والإنسان سبب في وقوعها، وهو المسؤول عن أفعاله: مَنْ اهتدى بفَضْلِ اللَّهِ ورحمته، ومن ضلَّ فبعْدِلِ اللَّهِ وحكمته، {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف: ٥].

فالهداية والإضلال فعل الله وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ



كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ { غافر: ٢٨ }، فبسبب الإسرافِ في الكفرِ والمعاصي والكذبِ أضلَّهُم اللهُ بعدلِهِ وحكمته، وقال: **{ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ }** { غافر: ٣٥ }.

فبشؤمِ كِبَرِهِم وتجبُّرِهِم وفجورِهِم طَبَعَ اللهُ على قلوبِهِم، وقال: **{ وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ ۚ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ }** { غافر: ٣٧ }.

فبسبب سوءِ عملِهِ وكيدِهِ أهلكه اللهُ.

٢٣- الهدايةُ هدايتان: هدايةُ إرشادٍ، وهدايةُ توفيقٍ وسدادٍ: أما هدايةُ الإرشادِ فيملِكُها كُلُّ داعٍ إلى اللهِ بالعلمِ والعملِ؛ ومن هذا قولُ المؤمنِ: **{ يَنْقُومُ آتِبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ }** { غافر: ٣٨ }؛ أي: أدلَّكُمْ عليه، وأما هدايةُ القلوبِ للتوفيقِ والرَّشادِ والسَّدادِ، فلا يَمْلِكُها إلا اللهُ؛ ولذا قال اللهُ تعالى في هذه القصةِ على لسانِ مؤمنٍ آلِ فرعونٍ: **{ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٩﴾ }** { الرعد: ٣٩ }.



وقال الله تعالى للنبي ﷺ: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشورى: ٥٢)؛ أي: تُرشدُ الناسَ إلى الطريقِ المستقيمِ، وتُدلُّهم عليه، وهذه هدايةُ الإرشادِ.

وقال الله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (القصص: ٥٦)، وهذه هدايةُ التوفيقِ والسَّدادِ.

٢٤- التحذيرُ من مكرِ أهلِ الفسادِ وتلبسِهِم على الناسِ: فأهلُ الفسادِ يُوهمونَ الناسَ أنَّهم على الحقِّ، ويُرَيِّنونَ لهم الباطلَ، ويطعنونَ في أهلِ الصَّلاحِ، ويرمونهم بالتُّهمِ والشُّبهاتِ المَكْذُوبَةِ؛ لخداعِ الناسِ، وتضليلِهِم، وصدِّهِم عن سبيلِ الله.

فهذا فرعونُ الملعونُ يقولُ لقومه عن موسى ﷺ: {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} (غافر: ٢٦).
فيتَّهِمُ موسى بأنه مفسِدٌ في الأرضِ، وضالٌّ عن الحقِّ، ويقولُ عن نفسه: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} (غافر: ٢٩).



يَصِفُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الْهَادِي سَبِيلَ الرِّشَادِ، وَهَذِهِ حِيلَةُ أَهْلِ الْفَسَادِ
 فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا
 تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
 الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ عَامِنُوا كَمَا عَامَنَ
 النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ الْأَنْثَمُونَ كَمَا عَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
 وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾} [البقرة: ١١، ١٣].

فَالْمُنَافِقُونَ وَصَفُوا أَهْلَ الْإِيمَانِ بِأَنَّهُمْ سَفَهَاءُ مَفْسُودُونَ،
 وَوَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ رَاشِدُونَ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي هَذَا
 الزَّمَانِ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَأَهْلِ الزُّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ، فَأَهْلُ الْبِدْعِ يَقُولُونَ
 عَنْ أَهْلِ الْحَقِّ: وَهَابِيَّةٌ، رَجْعِيَّةٌ، وَسَنِيَّةٌ... إلخ، وَأَمَّا أَهْلُ الْإِلْحَادِ
 وَالزُّنْدَقَةِ مِنَ الْعِلْمَانِيِّينَ وَاللِّبْرَالِيِّينَ وَالشُّيُوعِيِّينَ فَيَسْمُونَهُمْ:
 إِرْهَابِيِّينَ، رَجْعِيِّينَ، مُتَعَصِّبِينَ... إلخ، وَكُلُّ هَذَا لَصْدُّ النَّاسِ عَنْهُمْ
 وَعَمَّا يَحْمِلُونَهُ مِنْ عِلْمٍ وَهَدًى.

وَيَسْمُونُ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُتَحَضِّرِينَ، وَالْمُتَنَوِّرِينَ، وَالْمُفَكِّرِينَ،
 وَالْمُجَدِّدِينَ، وَالْحَدَّثِيِّينَ، وَالْمُتَقَدِّمِينَ، وَهَكَذَا يَصِفُونَ أَعْمَالَهُمْ



فَيَسْمُونُ عُرْيَ الْمَرْأَةِ وَتَبَرَّجَهَا حُرِيَّةً وَعَصْرِيَّةً، وَيَسْمُونُ اللِّوَاطَ
وَالسَّحَاقَ بِزَوَاجِ الْمُثْلِينَ، وَيَسْمُونُ الزَّنا بِالْحُرِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ،
وَيَسْمُونُ الْخُمُورَ بِالْمَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةِ، وَيَسْمُونُ الرِّبَا بِالْفَوَائِدِ
الْإِنْتَاجِيَّةِ، وَيَسْمُونُ اخْتِلَاطَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَّةِ
بِالتَّحْضُرِ وَالْمَدْنِيَّةِ.

ولذلك قال الله عن فرعونَ وأفعاله: {وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا
هَدَىٰ ۝٧٩} [طه: ٧٩]، وقال: {فَأَسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٨١} فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢} [الزخرف: ٨٠]، وهذا مصيرٌ من يتبعُ أهلَ الفسادِ، ويتركُ أهلَ الحقِّ.

٢٥- وجوب الاعتبار بحال السابقين: فقد ذكر الله حال الأمم
الماضية وما لاتهم لاعتبارِ بهم وبأحوالهم، فالصالحون منهم كانت
لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، والكفارُ والمفسدون منهم كانت
لهم النقمةُ وخلودُ العذابِ في الدنيا والآخرة؛ ولذلك قال مؤمنٌ آلِ
فرعونَ لقومه: {يَقُومُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝٣٠
مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ



ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ { [إفرا: ٣١]، فذكرهم بما حصل لقومِ نوحٍ من إهلاكِ الله لهم بالغرق لما كذبوا نوحًا ﷺ، وذكرهم بقومِ ثمودَ لما كذبوا صالحًا ﷺ، فاهلكهم الله كلهم، وذكر لنا قصصهم لنعترِ ونحذر من تكذيبِ الرسل، فيكون المصيرُ الهلاك والعذاب.

قال الله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقُومُوا عِبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ^{٣٨} وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ^{٣٩} وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٤٠﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾} [العنكبوت: ٣٦-٤٠].

وقال: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤١﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا



بِالطَّاعِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ۝ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْخَطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَّابِيَةً ۝ [الحاقة: ٤، ١٠]، وقال: {كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۖ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝} [آل عمران: ١١]، وقال: {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخُرْزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝} [الزمر: ٢٦].

٢٦- استحالة الظلم في حقِّ الله تعالى: قال مؤمن آلِ فرعونَ لقومه لما ذكَّروهم بمصيرِ الأممِ الكافرةِ الظالمةِ المكذبةِ للرُّسلِ: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝} [غافر: ٣١]؛ أي: أن الله تعالى مُنْزَهٌ عَنِ الظلمِ، وإنما أوقع العقوبةَ بهؤلاءِ المكذبينِ عدلاً منه بشؤمِ كفرِهِم وتكذيبِهِم ومعاصيهِم.



قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٠]، وقال سبحانه عن نفسه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٠]، وقال سبحانه: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [٤٦] [فصلت: ٤٦].

وقال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا...»^(١).

فالظلمُ صفةٌ نقصٍ، والله جل وعلا منزّهٌ عن النقصِ فعلاً وصفةً؛ لأنَّ الظلمَ هو وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعه، وهذا محالٌ على الله الحكيمِ العليمِ.

فقوله سبحانه: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} [٢١] [غافر: ٢١]: مبالغةٌ في نفي الظلمِ عنه سبحانه؛ حيث علّقه بالإرادة، فإذا نفاه عن الإرادةِ كان نفيه عن الفعلِ الوقوعِ أولى وأحرى.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).



قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهذا يتبين القول الوسط، وهو أن الظلم الذي حرّمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها، ويعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات، ويعاقب هذا بذنب غيره، أو يحكم بين الناس بغير القسط، ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه عنها الرب؛ لقسطه وعدله، وهو قادرٌ عليها، وإنما استحق الحمد والثناء لأنه ترك هذا الظلم وهو قادرٌ عليه، وكما أن الله مُنزهٌ عن صفات النقص والعيب فهو أيضاً مُنزهٌ عن أفعال النقص والعيب»^(١).

٢٧. وجوب الإيمان والاستعداد لليوم الآخر: فالإيمان بالقيامة، من اشتماله على الحساب والعرض، ونشر الكتب، والجنة والنار، والصراط من أركان الإيمان التي لا يصح إسلام المسلم ولا إيمانه إلا بها، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على ذلك، وهنا ذكر مؤمن آل فرعون قومه باليوم الآخر، وما فيه من

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/١٤٦).



الأهوالِ بقوله: {وَيَقَوْمٌ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [غافر: ٣٩].

وقال: {وَيَقَوْمٌ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ} [٣٢] يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [غافر: ٣٣]، وقال: {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} [غافر: ٤٠]، وقال: {لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} [غافر: ٤٣].

ولما ذكَّروهم باليوم الآخر ذكَّروهم بوجوب الإيمان بالجنة والنار، فإنهما موجودتان الآن مخلوقتان، لا تفنيان أبداً ولا تبدان، فقال لهم: {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} [غافر: ٤٠]، وقال: {وَيَقَوْمٌ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِنِي إِلَى النَّارِ} [غافر: ٤١].



٢٨- **إِبْثَاتُ صِفَةِ الْعُلُوِّ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ:** دلت نصوصُ القرآنِ والسنةِ والعقلِ والفطرةِ على أن الله تعالى موصوفٌ بعلوِّ الذاتِ، وعلوِّ القدرِ، وعلوِّ القهرِ، قال الله تعالى: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾} [الأعلى: ١]، وقال: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾} [البقرة: ٢٥٥]، وقال: {عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾} [الرعد: ٩]، وقال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١٠﴾} [فاطر: ١٠]، وقال: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِي مَرْيَمُ ارْقُطْ إِلَيَّ وَارْفُاعَكَ إِلَيَّ} [آل عمران: ٥٥]، وقال: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾} [الأنعام: ١٨]، وقال تعالى: {ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾} [الملك: ١٦، ١٧]، وقال النبي ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(١).

(١) أخرجه الترمذي (١٩٢٤).



قال الإمام أبو حنيفة: «من قال: لا أعرفُ ربي في السماءِ أو في الأرضِ فقد كفرَ»^(١).

وقال الإمام مالك: «إن الله فوق السماءِ وعلمُه في كلِّ مكانٍ»^(٢).
وبالفطرة كلُّ مخلوقٍ إذا أراد أن يدعو الله تعالى توجه إليه
بكلِّيته نحو السماءِ إلى فوق، ورفعَ يديه، ووجهه وبصره وجميعَ
جوارحه وقال: يا رب؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا
صَفْرًا»^(٣).

وفي هذه القصة العظيمة أخبر الله عن قول فرعون لهامان
وزيره: {يَهْمَنْ أَتْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} ^(٤) أَسْبَبَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ
لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤٧ / ٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥٨ / ٥).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٨٨).



تَبَابُ { ٣٧ } { غافر: ٣٧ } .

ففرعونُ ينكِرُ وجودَ الله، وينكِرُ كونهَ فوقَ سَمَواتِهِ، مستويًا على عرشِهِ، بأتنا من خلقِهِ كما أخبره موسى ﷺ، فمن أثبت علوَ الله على خلقِهِ فهو مؤمنٌ موسويٌّ محمديٌّ قرآنيٌّ سنيٌّ، ومن أنكرَ علوَ الله على خلقِهِ فهو فرعونيٌّ جهميٌّ بدعيٌّ منكوسُ الفطرة، مطموسُ البصرِ والبصيرة.

٢٩- شروطُ قبولِ العملِ الصالحِ عند الله تعالى: العملُ الصالحُ هو كُلُّ قولٍ أو عملٍ يقربُ إلى الله تعالى، ويكونُ فاعِلُهُ مخلصًا لله، متبعًا للنبيِّ محمدٍ ﷺ، فدل ذلك على أنه يُشترطُ في قبولِ العملِ الصالحِ ثلاثةٌ شروطٍ:

الأولُ: أن يكونَ العاَمِلُ مؤمنًا مسلمًا.

الثاني: أن يكونَ العملُ مأخوذًا من نصوصِ الكتابِ والسُّنةِ بفهمِ أصحابِ النبيِّ ﷺ.

الثالثُ: أن يكونَ العملُ خالصًا لوجهِ الله الكريمِ.



لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾} [طه: ١١٢]، فالعمل الصالح لا يكون صالحًا إلا بالمتابعة لرسول الله والإخلاص لله مع شرط إيمان صاحبه بالله ورسوله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

قال الله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿٩٧﴾} [الكهف: ٩٧]، وقال سبحانه: {مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِئى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾} [النحل: ٩٧].

وفي هذه القصة قال مؤمن آل فرعون مبينًا شروط القبول عند الله: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِئى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٩٨﴾} [غافر: ٩٨]، فاشترط الإيمان للعمل الصالح المقرون بالمتابعة للشرع والإخلاص لله.



٣٠- من مات على الشرك أو الكفر خسر الدنيا والآخرة: فهذا مؤمن آل فرعون بين لقومه أن النجاة في توحيد الله، وأن الخسران في الشرك والكفران، فقال لهم: ﴿وَيَقَوْمَ مَا لِيِ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ { [غافر: ٤١-٤٣] .

والكفر: هو جحود ما لا يتم الإسلام إلا به، وتكذيب الله ورسوله، وهو ضد الإيمان، ومنه كفر الجحود، والاستكبار، والنفاق، والاستهزاء... إلخ.

والشرك: هو صرف حق من حقوق الله لغيره، ومساواة غير الله بالله فيما هو حق الله، بأن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية أو الألوهية.



فحقيقةُ الشُّركِ: صرفُ العبدِ شيئاً من أنواعِ العبادةِ لغيرِ الله تعالى، سواءً كان صنماً، أو وثناً، أو حجراً، أو قبراً، أو وليّاً، أو نبياً، أو جنياً، أو غيرَ ذلك.

وقد اجتمع الكفرُ والشُّركُ في حقِّ فرعونَ ومَلَكِهِ؛ ولذلك قال لهم الرجلُ المؤمنُ: {تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}.

٣١- وجوبُ التَّوَكُّلِ على الله والرضا بقضائه وتفويضِ الأمرِ إليه: فالتَّوَكُّلُ على الله هو الاعتمادُ عليه سبحانه في جلبِ المطلوبِ ودفعِ المرهوبِ، مع الأخذِ بالأسبابِ المشروعةِ المستطاعةِ، وتركِ النتيجةِ على الله وحده، ومن أركانِ الإيمانِ التي لا يَصِحُّ إيمانُ العبدِ إلا بها: الإيمانُ بالقدرِ، والقدرُ قدرةُ الله كما قال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ؛ لأنه من قدرته ومن عمومِها بلا شكٍّ، والقدرُ سرُّ الله المكتومُ الذي لا يَعْلَمُهُ إلا الله سبحانه، ومراتبُه أربعةٌ: العلمُ، الكتابةُ، والمشِيئةُ، والخلْقُ والإيجادُ.



ومن لوازم الإيمان بالقضاء والقدر: التوكّل على الله، وتفويض الأمر إليه، والاستسلام له والثقة به، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، قال سبحانه: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾} [القمر: ٤٩]، وقال: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾} [التكوير: ٢٩].

وفي هذه القصة العظيمة صرّح مؤمن آل فرعون بتفويض أمره إلى الله، مسلماً أمره لله، مؤمناً بقضائه وقدره، راضياً بحكمه، فقال: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾} [غافر: ٤٤]، وذلك بعد أن أدّى ما عليه من الدفاع عن نبي الله موسى عليه السلام، وتبليغه لدعوة الله، وإقامة الحجة على فرعون وقومه، ثم أظهر الرضا بالقضاء والقدر إن قتلوه كما قُتل مؤمن آل ياسين، فهو راضٍ بقضاء الله مستسلم له، وإن أنجاه الله من فرعون وبطشه فذلك فضل الله ورحمته، فهو السعيد به، وكانت النتيجة: {فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٥٥﴾}

[غافر: ٥٥].



٣٢- جزاء الحسنَةِ والسيئةِ بين الفضلِ والعدلِ: من عظيمِ رحمةِ الله تعالى أن العبدَ إذا همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله له بفضله ورحمته حسنةً كاملةً، وإن عملها كتبها له عشرَ حسناتٍ إلى سبعِ مئةٍ ضعفٍ أو أكثرَ، والله يضاعفُ لمن يشاء، وهذا من رحمةِ الله.

أما إن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله له حسنةً، وإن عملها كتبها الله عليه سيئةً واحدةً، وهذا من عظيمِ فضلِ الله وعدله.

ولذلك قال مؤمن آلِ فرعونَ ذاكَ العالمَ الربانيُّ: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾}

[غافر: ٤٠].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربِّه جلَّ وعلا أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةٍ ضِعْفٍ



إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هُمْ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(١).

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ في شرح هذا الحديث: «وفيه أن الله سبحانه وتعالى بفضلِهِ وكرَمِهِ جعل العدلَ في السيئةِ، والفضلَ في الحسنةِ، فضاعف الحسنةَ، ولم يضاعف السيئةَ؛ بل أضاف فيها إلى العدلِ الفضلَ، فأدارها بين العقوبةِ والعفو»^(٢).

٣٣- هَوَانُ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَبَطْلَانُهَا: حَقُّهَا أَنْ يَبَالَ عَلَيْهَا كَمَا بَالَ الْكَلْبُ عَلَى هُبَلٍ.

كُلُّ مَا عُبدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ طَاغُوتٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٥]، سِوَاءُ كَانَ صَنْمًا، أَوْ قَبْرًا لَوْلِيٍّ، أَوْ نَبِيٍّ، أَوْ ضَرِيحٍ مِنَ الْأَضْرَحَةِ، أَوْ بَقْرَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٣٢٩/١١).



فكُلُّ هذه المخلوقاتِ المعبوداتِ مهينةٌ في نفسها، لا تنفعُ ولا تضرُّ، ولا تغني عن عابديها شيئاً، ويظهرُ هوانُ هذه المعبوداتِ من النواحي الآتية:

١- هوانها على الله: فيلقي بها يومَ القيامةِ في نارِ جهنمَ مع عابديها؛ لقوله تعالى: {وَقِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾} [الشعراء: ٩٤].

ومن هوانها على الله قولُ الله تعالى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

وقال سبحانه: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَ اللَّهِ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾} [الأنبياء: ٩٨].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

٢- هوانها على الأنبياء والرسل وأهل الإيمان: فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يقول لعباد الأوثان: {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ} (٣٦) أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٧) {الأنبياء: ٦٧}، وقال: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ} (٧٥) أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) {الشعراء: ٨٢}، وقال سبحانه: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ} {المتحنة: ٤}.

وهذا نبي الله موسى عليه السلام لما عبد بنو إسرائيل العجل بغواية السامري، قال له: {وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} (٩٧) {طه: ٩٧}.



وهذا قَمَّةُ الاستهانةِ والاستخفافِ بالمعبودِ من دونِ الله.

وهذا نبيُّ الله محمدٌ ﷺ لَمَّا فتح اللهُ عليه مكةَ جعلَ يشيرُ بقضيبٍ في يدهِ إلى الأصنامِ يدفعُها لوجهِها، أو لقفِها إلى الأرضِ، وهو يقول: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١]^(١).

وهذا الصديقُ أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه يقولُ لأحدِ المشركين: «امْصُصْ بَطْرَ اللاتِ»^(٢).

٣- هوانُها على عابديها وفي نفسِها: فقد كان الرجلُ يعبدُ صنماً من عجوةٍ، فإذا جاعَ أكله، وبعضُهم يعبدُ صنماً من خشبٍ، فإذا اشتدَّ عليه البردُ أشعلَ فيه النارَ ليستدفئَ به، وأكثرُ من كان يعبدُ الأصنامَ كفرَ بها وأهانها وقام بتكسيرِها، ونِدِمَ وتاب وأسلم.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

ولهذا قال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿وَيَقَوْمَ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى
 الشَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ
 مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا
 تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا
 إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (٤٣) [غافر: ٤٣].



٣٤- **ثبوتُ عذابِ القبرِ ونعيمِهِ**: من عقيدةِ أهلِ الإسلامِ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ الإيمانُ بثبوتِ عذابِ القبرِ ونعيمِهِ، قال الإمامُ الطحاوي رحمه الله: «وقد تواترت الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ في ثبوتِ عذابِ القبرِ ونعيمِهِ لمن كان لذلك أهلاً، وسؤالِ الملكين...»^(١).

ومن أدلة ذلك ما ورد في قصة مؤمن آلِ فرعون: {فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝٤٥ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦} [غافر: ٤٦].

فدلت الآيةُ على عذابين بعدَ هلاكِ قومِ فرعون:
الأول: عذابُ القبرِ؛ يُعْرَضُونَ فِيهِ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا.
الثاني: عذابُ الآخرة؛ قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦}.

(١) انظر: «العقيدة الطحاوية» (ص ١٤).

ويظهر ذلك في القرآن كثيرًا، وعلي سبيل المثالِ قوله تعالى عن المنافقين: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٦١﴾} [التوبة: ١٠١]، يُعَذِّبُونَ مرةً في الدنيا، ومرةً في القبر، ويُردُّون في القيامة إلى عذابٍ غليظٍ.

وقال بعض العلماء: عذابُ المرتين يُكرَّرُ في القبر أيضًا.
وقوله تعالى عن قومِ نوح: {مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٦٥﴾} [نوح: ٦٥]، فبمجرد إغراقهم دخلوا عذاب النار في قبورهم فورًا.

وقوله سبحانه في أصحابِ الأخدودِ الذين حرَّقوا أولياءِ الله: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٦٦﴾} [البروج: ٦٦]، فهذان عذابان: الأول: عذاب جهنم في القيامة. والثاني: عذاب الحريق في القبر.

وقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾} [الأنفال: ٥٠]؛



أي: تضربهم الملائكة عند قبض أرواحهم، وتقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق على الفور في قبوركم قبل عذاب الآخرة.

وقوله سبحانه: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾} [الأنعام: ٩٣]، فعذاب الهون الذي سيجازون به يوم موتهم هو عذاب القبور.

وقال تعالى عن نعيم أهل الإيمان في قبورهم كما ورد في قصة مؤمن آل ياسين، قال لما قتله قومه: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ} قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾} [يس: ٢٧]، فبمجرد موته ودخوله القبر وجد النعيم والكرامة فيه، فقال ما قال.

وقال سبحانه عن الشهداء وهم يُنعمون في قبورهم: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٦﴾} فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ



لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
[آل عمران: ١٧٠]، فأرواحهم في حواصل طيرٍ خضرٍ تردُّ أنهارَ الجنةِ،
وتسرحُ حيث شاءت، كما أخبر النبي ﷺ^(١).

وأما من السنة فقد وردت أحاديثٌ كثيرةٌ بلغت مبلغَ التواترِ في
ثبوتِ عذابِ القبرِ ونعيمِهِ، منها حديثُ ابنِ عباسٍ وأبي هريرة أن
النبي ﷺ كان يستعيذُ بالله من أربعٍ: «مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ
القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(٢).
وقال ﷺ: «اسْتَعِذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ...»^(٣).

ومرَّ بقبرين فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا
أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي
بِالنَّمِيمَةِ»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٥٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٨).



وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة المتواترة الدالة على نعيم وعذاب القبر.

٣٥- بيان عظيم فضائل أصحاب النبي ﷺ: فهذا رجل مؤمن يكتُم إيمانه، قام في وقت ما ينافح ويدافع عن أهل الحق ودعوة الحق، وقد خلد الله ذكره في كتاب يحفظ في الصدور، ويتلى في المحاريب، فأنزل سورة باسمه (سورة المؤمن)، وقال الله عنه: {فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} ﴿٤٥﴾ [غافر: ٤٥].

فما بالنا بأصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار الذين جهرُوا بإسلامهم، وصدعوا بالحق، وتعرضوا للبلاء والحروب، وهجروا بلادهم وأموالهم وديارهم وأهليهم، وعادوا كل من عادى الله ورسوله ﷺ، وعاهدوا وبايعوا على الجهاد بالنفس والمال وعلى النصرة، وصدقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه، منهم من قُتل في سبيل الله، ومنهم قاتل في سبيل الله، ومنهم من حفظ



الكتاب والسُّنة وحملها إلى العرب والعجم، حتى دخل الإسلام
ربوع الدنيا بعزٍّ عزيز، أو بذلٍّ ذليل.

فأصحابُ النبيِّ محمدٍ ﷺ هم خيرُ صحبٍ لخيرِ نبيٍّ.

قال ابنُ عطيةَ الأندلسيِّ في «تفسيره»: سمعتُ أبي يقول:
سمعتُ أبا الفضلِ الجوهريَّ على المنبرِ وقد سُئِلَ أن يتكلَّمَ في
شيءٍ من فضائلِ الصحابةِ، فأطرق قليلاً، ثم رفع رأسه وأنشد:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ * فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي
ماذا تريدون من قومٍ قرنهم اللهُ بنبيِّه، وخصَّهم بمشاهدته،
وتلقى الوحي منه؟

وقد أثنى اللهُ على رجلٍ مؤمنٍ من آلِ فرعونَ كتمَ إيمانه وأسرَّه،
فجعله اللهُ في كتابه، وأثبتَ ذكره في المصاحفِ لكلامِ قاله في
مجلسٍ من مجالسِ الكفرِ، وأين هو من عمرَ بنِ الخطابِ حين
جرَّد سيفه بمكةَ وقال: «واللهِ لا عبدَ اللهَ سرًّا بعدَ اليوم»^(١).

(١) انظر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٥٥٦).



ويكفي شهادة النبي ﷺ لأصحابه بأنهم خير الناس، فقال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(١)، وقال ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدُّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^(٢).

وفضائل الصحابة وشمائهم كثيرةٌ وعظيمةٌ، فليُرْجَعْ إليها في كُتُبِ الفضائل.

٣٦- كُلُّ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا مُنِيرٌ، ومهما اشتد الكربُ فالفرجُ آتٍ:

فهؤلاء بنو إسرائيل عاشوا تحت وطأة ظلم فرعون وجنوده، قتلوا أبناءهم، واستحيوا نساءهم، وساموهم سوء العذاب، إلى أن منَّ الله عليهم بعبده موسى ﷺ، وأمرهم بالصبر، وقال لهم: {أَسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ { [الأعراف: ١٢٨]، فلما صبروا دمر الله فرعون وجنوده،

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣).

وَفَرَجَ كَرْبَ مُوسَى وَقَوْمِهِ، وَنَعَّمَهُمْ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ.

فكُلُّ بلاءٍ في هذه الدنيا مؤقتٌ بمدةٍ محددةٍ، طويلةٌ كانت أم قصيرةً، ثم ينقضي بفضلِ الله ورحمته.

٣٧- **وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**: فموسى وقومه أخذوا بأسبابِ النصرِ، من الإيمانِ والطاعةِ والصبرِ واتباعِ موسى ﷺ، فهياً الله لهم أسبابَ النجاةِ، وأهلك فرعونَ وجنده.

٣٨- **الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالثَّبَاتُ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ لَا يَقْدَمُ أَجْلاً وَلَا يَمْنَعُ رِزْقاً**: فالرزق بيدِ الله، والأجل بيدِ الله، ولن تموتَ نفسٌ حتى تستوفيَ رزقها وأجلها، فهذا مؤمنٌ آلِ فرعونَ قام في وسطِ قصرِ فرعونَ وبين وزرائه وجنده مدافعاً عن دعوةِ الحقِّ، وعن إمامِ الدعوةِ، فدعاهم إلى التوحيدِ، وذكرهم بالله، وأقام الحجةَ عليهم بأجزلِ عبارةٍ، وأقوى قلبٍ، وأفصحِ لسانٍ، وقد حفظه الله ووقاه سيئاتٍ ما مكروا.

٣٩- **الْحِكْمَةُ مِنْ إِرْسَالِ الرِّسْلِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ وَبِعْثِ الدَّعَاةِ**: أرسل الله الرسلَ ليقيموا حجةَ الله على خلقه؛ بأن يوحِّدوه ولا



يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
 ﴿١٦٥﴾ {النساء: ١٦٥}، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦٤﴾} [آل عمران: ١٠٤]، وَقَالَ: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾} [التوبة: ١٢٢].

٤٠- عادة الحكام الكفرة والأغنياء الفسقة - كفرعون وهامان وقارون - التدليس على الناس في دينهم: يُنْفِرُونَ النَّاسَ عَنِ الدُّعَاةِ الْمُخْلِصِينَ؛ لِحِمَايَةِ مَصَالِحِهِمْ، وَخَوْفًا مِنْ تَغْيِيرِ الْوَضْعِ عَلَيْهِمْ، وَلِذَلِكَ قَالُوا عَنْ مُوسَى: «إِنَّهُ سَاحِرٌ، كَذَّابٌ»؛ لَصَرْفِ النَّاسِ عَنْهُ، وَصَدَّهِمْ عَنْ دَعْوَتِهِ، فَيُظِلُّ النَّاسَ عِبِيدًا لَهُمْ وَلَأَمْوَالِهِمْ.

٤١- وسيلة العاجز عن الحجّة من أهل الكفر والشرك والبدعة: إذا عجز الكافر والمبتدع عن مواجهة الدليل بالدليل هدد بالقتل والتعذيب والتشريد، وتشويه صورة أهل الحق، وهذا الذي فعله



فرعونُ وأتباعه حين عجزوا عن مجابهة الحجة بالحجة مع نبيِّ الله موسى عليه السلام، فقال: {اَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ} [غافر: ٢٥].

وأمثال هؤلاء الظَّلمة ليس عندهم ورعٌ يمنعهم عن الكذب وسفكِ الدمِ الحرامِ، وأكلِ المالِ بالباطلِ، والافتراءِ على الخلقِ بالتَّهمِ الكاذبة؛ لقوله سبحانه: {لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ} [التوبة: ١٠].

٤٢- مَنْ استعاذ باللهِ أعاده اللهُ، ومن توكلَّ على اللهِ كفاه اللهُ: فلما قام موسى عليه السلام بالدعوة إلى الله كما أمره اللهُ، وأراد فرعونُ قتله لجأ موسى إلى ربِّه؛ ليُعِيذه من فرعونَ وقومه، وقال: {إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} [غافر: ٢٧]، فأعاده اللهُ وحَفِظَه ورعاه ونصرَه وكفاه، وأهلكَ مَنْ عاداه، وجعلَهم عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ إلى يومِ الدينِ.

فالله وحده هو ملاذُّ المؤمنين، وهو حسبنا ونعم الوكيل!



٤٣- **إِنْ تَمَكَّنْ أَهْلُ الْكُفْرِ قَاتِلُوكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا:** قال تعالى عنهم: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأَ} [الكهف: ٢٠٠]، فالكفرة إِنْ تَمَكَّنُوا فلن يرضوا من المسلمين إِلَّا بالقتلِ، أو الرَّدَّةِ عن دينهم.

هذا فرعون طغى وبغى وظلم وقتل وشرّد؛ حتى قال: {يَقُومُ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِيَّ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف: ٥١]، وقال: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} [النارعات: ٢٤]، وحمل الناس على الكفر والعبودية له، فقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٢٨]، ولما آمن السَّحرة قتلهم وصلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ، وخرج لقتل موسى ومن معه من المؤمنين؛ لولا أن الله سلّم ونجّى موسى ومن معه أجمعين.

٤٤- **تَوْفِيقُ اللَّهِ لِلدَّعَاةِ الْمَخْلَصِينَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمَخَالِفِينَ:** فهذا مؤمن آل فرعون وفقه الله، وسدّد لسانه، وثبّت قلبه، وألقى على لسانه هذا الكلام البليغ، والحجة الدامغة، والموعظة البليغة التي ذرّفت منها العيون، ووجلت منها



القلوب، قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا
يَشَاءُ ﴿٢٧﴾} [إبراهيم: ٢٧]، وقال عن إبراهيم عليه السلام لَمَّا أَعَانَهُ فِي إِقَامَةِ
الْحُجَّةِ عَلَى قَوْمِهِ: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾} [الأنعام: ٨٣].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَانَ بَرُوحِ الْقُدُسِ مَا يَفَاخِرُ أَوْ
يَنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(١). وقال له ﷺ: «يَا حَسَّانُ، اهْجِ
الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ، أَوْ إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ»^(٢).

فَاللَّهُ يُؤَيِّدُ الدَّعَاةَ لِلتَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ الدَّائِبِينَ عَنِ الشَّرِيعَةِ بِإِلْهَامِهِم
الْحُجَّةَ السَّاطِعَةَ، وَتَأْيِيدَهُم بِالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَتَثْبِيتَ قُلُوبِهِم
وَتَسْدِيدِ أَلْسِنَتِهِمْ، كَمَا أَيْدَىٰ إِبْرَاهِيمَ فِي مَنَازِلَتِهِ لِقَوْمِهِ، وَلِلنَّمْرُودِ
وغيره، وكَمَا أَيْدَىٰ مُوسَىٰ فِي مَنَازِلَتِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَمَعَ السَّحَرَةِ
حَتَّىٰ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا.

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٦٧٨).



وهكذا مع جميع الأنبياء والأئمة والدعاة المخلصين على مرّ الأزمان والعصور؛ **{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}** {الأنبياء: ١٨}.

٤٥- **مراتب الناس في دخول الجنة**: منهم من يدخلها بغير حساب ولا عذاب، ومنهم من يدخلها بعد حساب؛ ولكن بدون عذاب، ومنهم من يدخلها بعد الحساب والعذاب، ثم يخرجون من النار إلى الجنة، كما وردت به الروايات عن رسول الله ﷺ.

قال مؤمن آل فرعون: **{وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}** {غافر: ٤٠}.

وقال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيظُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَتَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ



وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسَ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخَوْضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَنْتَطِירוْنَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِخْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ؟» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»^(١).

٤٦- أهمية الوعظ لترقيق القلوب وبيان الحجة وهداية الخلق:

فهذا المؤمن العظيم شملت مناظرته لفرعون وخطبته العريضة وحجته البالغة أنواعاً من الوعظ الذي يجلب رقة القلب والخوف

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠).



من الله مع بيان الحق، فذكر قومَه بحقارة الدنيا وزوالها، وذكرهم
 بيوم القيامة وما فيه من أهوال، وهو مُشفقٌ عليهم ناصحٌ أمينٌ لهم،
 فقال: {وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ} [غافر: ٣٢]، {يَقَوْمِ
 إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [غافر: ٣٩].

وهذا من سنة رسول الله ﷺ والأنبياء قبله، قال تعالى: {ادْعُ
 إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ
 أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
 بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥].

وقال ابن مسعود ؓ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَحَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي
 الْأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا»^(١).

وقال ابن عباس ؓ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ،
 فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةَ عُرَاءٍ غُرْلًا، كَمَا

(١) أخرجه البخاري (٦٨).

بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٠٤﴾ { [الأنبياء: ١٠٤] ،
 أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلْقِ يُكْسَى ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَلَا
 وَإِنَّهُ سَيَجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ، فَأَقُولُ : يَا
 رَبِّ أَصْحَابِي ، فَيَقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ ، كَمَا
 قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا
 تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾
 إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ } [المائدة: ١١٨] ، قَالَ : فَيَقَالُ لِي : إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى
 أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ ^(١) .

وقال العِرباض بن سارية رضي الله عنه : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ،
 فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ،
 فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَعَظْتَنَا مَوْعِظَةً مُودِعٍ ، فَاَعْهَدْ إِلَيْنَا بَعْهَدْ . فَقَالَ :
 «عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ عَبْدًا حَبِشِيًّا ، وَسَتْرُونَ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٠) .



مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ
الْمُهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّ
كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

٤٧- حرمةُ الجِدَالِ بغيرِ علمٍ أو فيما لا يعني: لقوله تعالى في
قصة مؤمن آلِ فرعون: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾} [غافر: ٣٥]، فكلُّ مَنْ خاصم
وجادل ليعارض الحقَّ بغيرِ حجةٍ فهو في سَخَطِ اللَّهِ ومَقْتِهِ.

وأما الجِدَالُ بالتي هي أحسنُ بالحجةِ والعلمِ والبرهانِ
والحكمةِ فهو مشروعٌ مندوبٌ إليه؛ لبيانِ الحقِّ والدعوةِ إليه،
وهدايةِ الخلقِ إليه، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]، وقال

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢).



سبحانه: { وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } [العنكبوت: ٤٦].

وأما إن كان الجدل فيما لا يعني أو لمجرد الجدل فقد قال النبي ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»^(١)، فالجدال لطمس الحق هو فعل شياطين الإنس والجن، قال تعالى: { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِجَدَلُوكُمْ } [الأنعام: ١٢١]، وقال الله عنهم: { وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [غافر: ٥٠].

وما حملهم على هذا الجدل الباطل إلا الكبر، قال الله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي عَايَةِ اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [غافر: ٥٦].

وهذا الجدل بالباطل يهلك صاحبه، ويضله، ويعميه عن

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠).

الحقَّ، ويجعله في القيامة من الخاسرين، قال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} ٨ ثَانِي عِظْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ} ٩ [الحج: ٩].

قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ»^(١). وقال ﷺ: «مَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ»^(٢)، وقال ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوْتُوا الْجَدَلُ...»^(٣).

فالجِدَالُ بالباطلِ من أعظمِ أسبابِ الضلالِ.

٤٨- ذَمُّ الْإِسْرَافِ وَالْمُسْرِفِينَ: قال الله تعالى في هذه القصة العظيمة على لسانِ مؤمنِ آلِ فرعونَ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر: ٢٨]، وقال: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥٣٨٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢١٦٤).

مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ { [غافر: ٣٤]، وقال: { وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ

النَّارِ ﴿٤٣﴾ { [غافر: ٤٣].

والمُسْرِفُ هو الذي يتعدى حدودَ الله إلى ما حرّمه الله.

ومن صور الإسراف:

١- الإسراف على النفس بالمعاصي والشرك والكفر والبدعة،

قال تعالى: { قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا

مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

﴿٥٣﴾ { [الزمر: ٥٣].

وسبب نزول هذه الآية ما ورد من حديث ابن عباس رضي الله عنه: أن

النبي ﷺ بعد أن فتح الله عليه مكة جاءه أناس من أهل الشرك،

وقالوا: يا محمد، إن دينك هذا لحسن، وإن ما تدعو إليه لجميل،

ولكننا أناس أسرفنا في الشرك والخمر والقتل والزنا؟ فأنزل الله

قوله تعالى: { قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ

رَحْمَةِ اللَّهِ } [الزمر: ٥٣].



٢- الإسرافُ في المأكِلِ والمشارِبِ والشَّبَعِ المُفْرِطِ: وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، وقال: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَِعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتُ يَقْمَنُ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثَلْثُ طَعَامٍ، وَثَلْثُ شَرَابٍ، وَثَلْثُ لِنَفْسِهِ»^(١).

٣- الإسرافُ في ماءِ الوضوءِ والغسلِ؛ وقد كان النبي ﷺ يغتسلُ بالصاع، ويتوضأُ بالمدِّ، وعَلَّمَ الأُمَّةَ الوضوءَ مرَّةً مرَّةً، ومرتين مرتين، وثلاثًا ثلاثًا، وقال: «مَنْ زَادَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ أَوْ اعْتَدَى وَظَلَمَ»^(٢).

٤- الإسرافُ في القِصاصِ؛ لقوله تعالى: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [الإسراء: ٣٣؛ أي: فلا يقتل غيرَ القاتِلِ، ولا يمثِّلُ بالمقتولِ بعدَ موته.

(١) أخرجه أحمد (١٧١٨٦).

(٢) صحيح ابن خزيمة (١٧٤).

٥- الإسرافُ في المالِ الخاصِّ والعامِّ والمرافقِ العامة؛ كالإسرافِ في استهلاكِ المياهِ والكهرباءِ والغازِ ونحوِ ذلك؛ وهذا لعمومِ قولِ النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ»^(١).

وإِضَاعَةُ الْمَالِ هُوَ صَرْفُهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَتَعْرِضُهُ لِلتَّلَفِ، وَهَذَا مِنَ الْإِفْسَادِ، وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، وَمِنَ الْإِسْرَافِ؛ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.

كما نهى الله عن الإسرافِ في أموالِ اليتامى لَمَنْ كَانَ قِيَمًا عَلَى مَالِ الْيَتِيمِ، فقال سبحانه: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} [النساء: ٦]؛ أي: لا تتجاوزوا الحدَّ

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

المباح في أموال اليتامى.

كما نهى أن يُسْرِفَ الإنسانُ في حقِّ نفسه، فيسْرِفَ في ماله بإعطائه لغيره، ويجلسَ هو بغير مالٍ فيفتقرَ هو وأولاده، فقال سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾} [الأنعام: ١٤١].

قال الطبري رحمه الله: السرف الذي نهى الله عنه في هذه الآية مجاوزةُ القدرِ في العطيةِ إلى ما يُجحفُ برِّ المالِ^(١).

وقال سبحانه: {يَبْنَىْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾} [الأعراف: ٣١].

(١) انظر: تفسير الطبري (٤١٦/٩).



وهذا نهى عامٌ عن الإسرافِ، سواءً في أكلِ المحرّماتِ، أو فيما زاد عن حدِّ الشَّبَعِ، أو في تحريمِ المباحاتِ، وقال النبي ﷺ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَابْسُؤُوا مَا لَمْ يَحَالِطْهُ إِسْرَافٌ، أَوْ مَخِيلَةٌ»^(١).

وعن عمرو بن شعيبٍ عن أبيه عن جدّه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: لَيْسَ لِي مَالٌ، وَلِي يَتِيمٌ؟ فَقَالَ: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ، غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبَذِّرٍ، وَلَا مُتَأَثِّلٍ مَالًا، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِيَ مَالَكَ - أَوْ قَالَ - تَفْدِي مَالَكَ بِمَالِهِ»^(٢). وفي لفظ: «ولا مُبَادِرٍ».

«غَيْرَ مُسْرِفٍ»؛ أي: غير مُفْرِطٍ.

«ولا مُبَادِرٍ»؛ أي: مستعجلٍ في الأخذِ من المالِ قبلَ بلوغِ اليتيمِ وكبره.

«ولا مُتَأَثِّلٍ»؛ أي: غير جامعٍ مَالًا من مالِ اليتيمِ، وهذا كما قال الله تعالى: {وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء: ٦].

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠٢٢).



٤٩- وجوبُ الحَذَرِ من أهلِ البدعِ والزندقةِ المراءوغين

المدلسين ضعيفي الحجة بالتلبس على الناس:

فالتمويه في المناظرة لتغيير الموضوع وصرف الناس عن لب القضية وسيلةً ضعيف الحجة صاحب الهوى؛ للهروب من الحجة القاطعة، والإبقاء على الضلال، وقد حاول فرعون أن يفعل ذلك مع مؤمن آل فرعون ثلاث مرات؛ ولكنَّ المؤمنَ فُطِنَ ذِكِّي، لم يدع له شاذة ولا فاذة إلا أجهز عليها، وأبطل منهجه، وأقام الحجة عليه وعلى قومه، وهذا ما فعله موسى من قبل في مناظرته مع فرعون كما في سورة الشعراء: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} ١١ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ١٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٣ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٤ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ١٥ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٦ فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي



فَعَلَّتْ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ أُنْخِذَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْيءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِمَلَأَ حَوْلَهُ إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تُؤْتِكُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ



كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ {الشعراء: ١٠-٤٨}.

٥٠- التحذير من الاغترار بالدنيا والغفلة عن الآخرة: قال مؤمن آل فرعون لقومه: {يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا}؛ أي: أنتم الآن تملكون الدنيا والمُلْكَ والسلطان، وسوف تموتون وتعرضون على الله وتُحَاسَبُونَ، فَمَنْ يُنَجِّيكُمْ من عذابِ الله، وَمَنْ يَنْصُرُكُمْ من دونِ الله؟! الله!

وقال: {يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا



بَغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٠﴾ { غافر: ٣٩، ٤٠ }، والمتاعُ: هو ما يتمتعُّ به صاحبه برهةً من الوقتِ ثم يزولُ، أشبهُ بزادِ المسافرينِ.

وقال سبحانه: **﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾** { التوبة: ٣٨ }.

وقد ضرب الله المثلَ للدنيا بماءِ المطرِ الذي يصبُّ الأرضَ اليابسةَ، فتنبَتُ وتخلطُ فيها الأعشابُ والزرعُ، وتزهو بالزهورِ المختلفةِ التي تسرُّ الناظرينَ، وسرعانَ ما تتغيرُ خضرُتها وجمالُها بالصفرةِ والكُدرةِ والزوالِ والفناءِ.

قال الله تعالى: **﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾** { الكهف: ٤٥ }.

وقد وصفها الله وصفًا بليغًا في قوله سبحانه: **﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ**



مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ { [الحديد: ٢٠]؛
 أي: اعلّموا أيّها الناس، أن الدنيا لعبٌ ولهوٌ، تلعبُ بها الأبدانُ،
 وتلهو بها القلوبُ، وزينةٌ تتزيّنون بها، وتفاخرُ بينكم بمتاعِها،
 وتكثرُ بالعددِ في الأموالِ والأولادِ، مثُلها كمثُلِ مطرٍ أعجبَ الزُّرَّاعَ
 نباته، ثم يهيجُ هذا النباتُ فييسُّ، فتراه مصفراً بعد خضرته، ثم
 يكون فتاتاً يابساً متهشماً.

وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ للكفارِ ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ لأهلِ
 الإيمانِ، وما الحياةُ الدنيا لَمَن اغترَّ بها وانهمكَ فيها إلا متاعُ
 الغرورِ؛ أي: المتاعُ الذي يزولُ.

فهي متاعٌ زائفٌ زائلٌ تغرُّ الإنسانَ، وتخدعه فيظنُّ طولَ البقاءِ
 وهي فانيةٌ؛ {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢١﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
 وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٢﴾} [الرحمن: ٢١، ٢٢].



ولذلك قال النبي ﷺ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١)؛ أي: كمثِّل مسافرٍ نزل يستريحُ تحت ظلِّ شجرةٍ، ثم قام وتركها وانصرف.

وعن ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ أخذ بِمَنْكِبِهِ وقال له: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صَحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»^(٢).

ولذلك حذَّر الله من لهو الدنيا والاعتزازِ بها، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} ^(١) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ^(٢) وَلَنْ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

[المنافقون: ٩، ١١].

وقال النبي ﷺ: «وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرَنُّنٌ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا»^(١).

وهذا من أعظم الأدلة على حقارتها عند الله، وقال ﷺ: «الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(٢)، وقال ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمِثْلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا يَرْجِعُ». وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ^(٣).

فَمَنْ رَكَنَ إِلَى الدُّنْيَا وَرَضِيَ بِهَا وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهَا فَهُوَ مِنَ الْغَافِلِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ، قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الدِّينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَلْفُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾} [يونس: ٨].

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٨٢٨٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٠٨).

وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾} [هود: ١٥، ١٦].

وقال الله تعالى: {يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾} [فاطر: ٥]؛ أي: لا تَغُرَّنَكُم بما فيها من فتنٍ وشهواتٍ، واحذروا الشيطان أن يَغُرَّكم بالله تعالى، ويدفعكم إلى معصية الله.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(١).

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥).

٥١- العبرة في الأحكام بعموم اللفظ والحكم لا بخصوص
 السبب: قال الله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون وهو يحذر قومه
 من الكيد لأولياء الله من النبيين وأتباعهم: {وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا
 فِي ضَلَالٍ} [إغافر: ٢٥]، مع أنه يتكلم عن فرعون وقومه، ولم يقل:
 «وما كيدهم إلا في ضلال»، وإنما عمم الحكم لكل كافر ومتكبر
 وكائد لله ورسوله والمؤمنين.

وهذه قاعدة أصولية في الفقه، بمعنى أن الحكم الشرعي يكون
 عامًا لكل ما يشبه الواقعة التي نزلت من أجلها الآية أو الحديث،
 وذلك مثل آيات الظهار، نزلت بسبب واقعة معينة بين رجل من
 الصحابة وزوجته؛ لكن حكمها عام لكل من وقع في ذلك.

ومثل قوله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}
 [البقرة: ١٩٥]، نزلت في ترك الجهاد، وهي عامة لكل ما يعرض الإنسان
 للضرر والهلاك.

وهكذا في بقية الأحكام الشرعية التي لها سبب نزول، إلا ما دل
 الدليل على أنها واقعة عين لا تشمل غيرها.

٥٢- جميع مكر المفسدين في خسارٍ ودمارٍ وضياحٍ: قال مؤمنٌ
 آلِ فرعونَ: {وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٥﴾} [غافر: ٢٥٠]، وقال
 سبحانه: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣]، وقال:
 {وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ﴿٣٠﴾} [الأنفال: ٣٠]، وقال:
 {وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾} فأنظر كيف
 كَانَ عَقِبَهُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فِتْلِكَ يَبُوتُهُمْ
 خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾} [النمل: ٥٠، ٥٢]،
 وقال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾} فَمَهْلٍ
 الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُويْدًا ﴿١٧﴾} [الطارق: ١٧].
 وقال النبي ﷺ: «وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ
 أَمْرِي»^(١).

٥٣- التحذير من تزيين الأعمال الخبيثة نتيجة الاستمرار عليها:
 فهذا من أعظم أعمال الشيطان؛ {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ

(١) أخرجه أحمد (٥٦٦٧).



فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ {النمل: ٢٤}، وهنا قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾} {غافر: ٢٧}، وقال تعالى: {أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرْتَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾} {فاطر: ٨}، فَمَنْ كَانَ حَالَهُ كَذَلِكَ هَلَكٌ.

وقال سبحانه: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٥﴾} [الكهف: ١٥-١٠٥].

فتزيينُ القبيحِ وتقييحُ الحسنِ مهمَّةُ شياطينِ الإنسِ والجنِّ؛ قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾} {الأنعام: ١١٢}، وقال تعالى: {وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي



جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ { [الأنفال: ٤٨].

وفرعون يقول للناس: { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ
وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ } [غافر: ٢٩]، ويقول لهم محذراً من
موسى: { ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٦٦﴾ } [غافر: ٦٦]، وهذا من
تزيين الباطل وتقبيح الحسن.

وكثيرٌ مِنَ الناسِ يفعلُ المعاصي، وَيُزَيِّنُ الشَّيْطَانُ لَهُ فِعْلَهَا،
وَيُبْرِئُ لَهُ ذَلِكَ بِأَسْبَابٍ وَحِيلٍ شَتَّى، وَيُؤْزِرُهُ عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَيْهَا،
والاستمرار فيها.

وَمِنْ تَزْيِينِ الْبَاطِلِ: تَحْسِينُ الْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ، وَالْأَهْوَاءِ الْمَخَلَّةِ
مِنَ الْبَدْعِ الْمُضِلَّةِ، كَتَزْيِينِ دَعَاءِ الْمَوْتَى مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ،
وَالذَّبْحِ وَالنَّذْرِ لَهُمْ، وَالطَّوَافِ حَوْلَ قُبُورِهِمْ، وَالتَّبَرُّكِ بِهِمْ،



وتعظيمهم، وإقامة الموالد لهم، والأوراد والأذكار المخترعة لدى الطرق الصوفية، ونحو ذلك، وهذا على سبيل المثال.

٥٤- وصف الرجولة الحقيقية لا يكون إلا لأهل الإيمان وذوي

الهمم العالية في طاعة الله تعالى: فقد وصف الله جل وعلا هذا المؤمن المجاهد بالرجولة؛ لأنه ضحى بنفسه، وجهر بإيمانه من أجل نجاة نبي الله موسى، ونصرة دينه، ودحض الباطل وأهله، فقال: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ}.

ووصف الرجولة الحقيقية لا يؤتى لكل أحد، وإنما يوصف به المؤمنون الصادقون المخلصون المجاهدون العابدون، قال الله تعالى: {مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣]، فوصف الله هؤلاء الصادقين الأوفياء المجاهدين بالرجال.

ووصف الله تعالى العبد المؤمن المجاهد في سورة «يس» الذي جاء من أقصى المدينة يسعى؛ ليدافع عن الرسل الثلاثة وعن دعوتهم، لما علم أن القوم قد اتفقوا على قتلهم، فقال الله عنهم:



{وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَتَقَوْمٌ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٦﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿١٧﴾ إِنَِّّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ إِنَِّّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿١٩﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ط قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢١﴾}

{[يس: ١٣-٢٧].}

ووصف الله تعالى الرسل والأنبياء بأنهم رجال، فقال سبحانه:

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ} [يوسف: ١٠٩].

الرجال هم أهل المساجد، المصلون الطائعون الطاهرون، قال تعالى: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾}

[التوبة: ١٠٨]، فالرجال هم أهل الطهر والصلاة في المساجد، هم أهل الطهارة المعنوية والحسية، وقال سبحانه: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ



تُرْفَعُ وَيُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ {النور: ٣٦، ٣٧}

فوصف الرجال هنا بأنهم عمّار المساجد، الذين يسبحون الله بالليل والنهار، والذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويخافون عذاب الله تعالى.

ومدح هذا الرجل الذي جاء لموسى، وأمره بالخروج من مصر، وحذره من آل فرعون الذين أرادوا قتله، فقال سبحانه: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ أَلْمَلَأَ يَأْتَمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٣٧﴾} [القصص: ٢٠].

فالرجولة حبُّ الرُّسلِ والنَّبِيِّينَ، والدفاعُ عنهم، والتحذيرُ ممَّن يُعادِيهم.

لَمَّا أمر موسى قومه بالجهاد ولتحرير بيت المقدس فخذلوه وقالوا: {يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ



يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٣﴾}، وقالوا أيضًا:
 {يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ
 فَقَتِيلًا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾} [المائدة: ٢٤]، إلا رجلين قال الله عنهما:
 {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ
 الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَغَلِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾} [المائدة: ٢٣]، فما وافق موسى وأيده إلا الرجال.

فالرجال هم أتباع الرسل الذين تمسكوا بمنهج الله.

فالرجال الحقيقيون هم أهل الرشد والحكمة؛ ولذلك قال لوط
 ﷺ لقومه السفهاء الشواذ: {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾}
 [هود: ٧٨]، والرجل الرشيد هو الذي يستقيم على منهج الله ورسوله،
 وهو الذي يقيم شرع الله في نفسه وفي بيته، وفي مجتمعه، يدعو إلى
 الله، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويجد ويجتهد في طلب
 العلم، وفعل الخيرات.

فليست الرجولة بقتل الشوارب، ولا قتل العضلات، ولا رفع
 الأصوات، ولا ظلم الأبرياء، ولا نفخ الأوداج ونفخ الصدور علواً



واستكباراً، ولا بضخامة الجسد وحسن الصورة، وإنما هي طاعةُ الله ورسوله.

فهذا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه كان نحيفَ البدنِ، دقيقَ الساقينِ والقدمينِ، وضحك الصحابةُ من دقةِ ساقيه لما صعدَ الشجرة؛ ليأتيَ بعودٍ سواكٍ من شجرِ الأراكِ، فقال النبي ﷺ: «مِمَّ تَضَحَّكُونَ؟». قالوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ. فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحَدٍ»^(١).

وهذا عبدُ الله بنُ أمِّ مكتومٍ الأعمى رضي الله عنه جاء للنبي ﷺ يطلبُ العلمَ والهدى، فانشغل النبي ﷺ عنه بدعوةِ صناديدِ قريشٍ، فعتَبَ الله عليه، وقال: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} ^(١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ^(٢) أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَفَعَهُ الْذِكْرَى ^(٣) أَمَّا مِنْ أَسْتَعْنَى ^(٤) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ^(٥) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ ^(٦) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ

(١) أخرجه أحمد (٣٩٩١).

يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ { [عبس: ١٠، ١١]، فمع كونه أعمى إلا أنه رجلٌ بأمّة.

ولما طلب خالد رضي الله عنه من الصديق أبي بكر رضي الله عنه مددًا في حصار الحيرة، أمده برجل واحد، ألا وهو القعقاع بن عمرو، وقال: لا يهزم جيش فيه مثله.

وكان يقول: لَصَوْتُ الْقَعْقَاعِ فِي الْجَيْشِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ^(١).
ولما طلب عمرو بن العاص المدد من عمر بن الخطاب في فتح مصر كتب له: أما بعد:

فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبد الله بن الصامت، ومسلمة بن مخلد ^(٢).

(١) انظر: «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء» (٢/ ٤٧٨).

(٢) انظر: «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء» (٢/ ٣٧٢).



ولما جلس عمرُ مع جماعةٍ من أصحابه قالَ لهم: تَمَنُّوا. فَقَالَ
بَعْضُهُمْ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَأَنْصَدَّقُ. وَقَالَ رَجُلٌ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ زَبْرَجَدًا وَجَوْهَرًا،
فَأَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتَصَدَّقُ.

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: تَمَنُّوا. فَقَالُوا: مَا نَذَرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.
فَقَالَ عُمَرُ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ رِجَالًا مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ
الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ، وَحُدَيْفَةَ بْنِ
الْيَمَانِ^(١).

فالرجولة ليست بالمال، ولا المنصب، ولا الضخامة، ولا
الجمال، وإنما الرجولة بالإيمان والعمل الصالح ومكارم
الأخلاق.

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا
تَقُولُونَ فِي هَذَا؟». قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ
يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ. قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥٠٧٠).

المُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟». قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ إِلَّا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ إِلَّا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ إِلَّا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»^(١).

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَّنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَهَاجِرُ مَعَكَ. فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ، غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبِيًّا، فَقَسَمَ، وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ فَلَمَّا جَاءَ دَفْعُوهُ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قَسَمَ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا فَقَالَ: «قَسَمْتُهُ لَكَ»، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ؟ وَلَكِنْ اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أَرْمَى هَهُنَا- وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ- بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ. قَالَ: «إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ يَصْدُقْكَ». فَلَبِثُوا قَلِيلًا، ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَهُوَ هُوَ؟». فَقَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ، فَصَدَّقَهُ». ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩١).



فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ: «اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ، خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَيْهِ»^(١).

فالرجولة: مروءة^١، وشهامة^٢، وبذل^٣، وعطاء^٤، وتضحية^٥، وفداء^٦، ودين^٧ وإيمان^٨ وإحسان^٩.

والرجولة قِوامة^{١٠}، كما قال الله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء: ٣٤]، فالقِوامةُ مقامُ تكليفٍ واختصاصٍ، فالرجلُ هو القيمُ على أسرته وبيته، والمطالبُ بتعليمهم دينَ الله، واستقامتهم على منهج رسول الله ﷺ، ووقايتهم من الفتنِ ومما يُغضبُ الله، ويسعى لتأمينِ الاحتياجاتِ، ويواجهُ صعوبةَ الكسبِ، وينفقُ على أهله من الحلالِ.

فالرجلُ الذي تقوده المرأةُ، والذي لا يقومُ بحقِّ الله في أهله وأولاده كما أمر الله ليس بقيمٍ، وليس برجلٍ؛ بل هو مجردُ ذَكَرٍ.

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٢٠٩١).

من وسائل تنمية الرجولة في أطفال المسلمين منذ الصَّغر:

- ١- تعليمهم القرآن والسنة على علماء أهل السنة والجماعة.
- ٢- اصطحاب الأولاد للمجامع العامة، وحضورهم مع الكبار يتعلمون من أدبهم.
- ٣- تربيتهم على الغيرة على المحارم وستر العورات.
- ٤- إعطاء الصغير قدره في المجلس.
- ٥- تحديثهم عن بطولات السابقين من الرسل، والصحابة، والعلماء، والصالحين، والقادة الفاتحين، والغزاة المجاهدين.
- ٦- تعليمهم الرياضات التي تنمي فيهم القوة والشجاعة والرجولة والجرأة في الحق، كالسباحة، والرماية، وركوب الخيل، ونحو ذلك.
- ٧- تجنب الأولاد وسائل الفساد، كالغناء والرقص، وسماع الموسيقى، وحياة الترف.
- ٨- تجنب إهانة الأولاد أمام الآخرين، وعدم احتقار أفكارهم ولا أسلحتهم.



٩- تعليم الولد حفظ الأسرار، وحفظ الأمانات، وإكرام الضيفان، واحترام الجيران، وصلة الأرحام، والعطف على الأراامل والأيتام.

فتبين مما سبق أن صفات الرجولة الواردة في القرآن هي:

١- الطهارة: بشقيها الحسي والمعنوي، كما ورد في سورة التوبة، قال تعالى: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾} [التوبة: ١٠٨].

٢- الصدق مع الله تعالى، كما ورد في سورة الأحزاب، قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبُهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾} [الأحزاب: ٢٣].

٣- إثارة الآخرة على الدنيا، كما ورد في سورة النور بالذكر، والصلاة، والزكاة، والخوف من الله، قال تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾} [النور: ٣٧].



٤- القِوامةُ وحسنُ التوجيه لبيوتهم وذويهم، كما ورد في سورة النساء، قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ قَنَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾} [النساء: ٣٤].

٥- تبليغ دعوة الله، وطلب العلم، والدفاع عن الأنبياء، كما ورد في سورة يس، قال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِقُونَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُنْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿١٣﴾ إِنْئِي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٤﴾ إِنْئِي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿١٥﴾} [يس: ٢٠-١٥]، وقال تعالى في سورة غافر: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ



كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُومُ لَكُمْ
الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ
جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ
الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ
وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ
الْتِنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ { [غافر: ٢٨-٣٣] .

٦- التحرك السريع للدرء الخطر وبذل النصيحة، كما ورد في
سورة القصص، قال تعالى: { وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى
قَالَ يَمُوسَى إِنَّ أَلَمَاءًا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ
النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ } [القصص: ٢٠] .

وأما من السنة:



١- القيام بالفرائض، كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ» قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا. فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»^(١).

٢- الصلاح والخشية: لحديث ابن عمر رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّمَا بِيَدَيَّ قِطْعَةً إِسْتَبْرَقَ، وَلَا أُشِيرُ بِهَا إِلَى مَوْضِعٍ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا طَارَتْ بِي إِلَيْهِ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَصْتُهَا حَفْصَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّ أَخَاكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، أَوْ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ رَجُلٌ صَالِحٌ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٢٥).



٣- الصبرُ على الشدائدِ لله تعالى: لحديثِ خَبَّابِ بنِ الأَرْتِ رضي الله عنه قال: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بَرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يُصَدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيَمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يُصَدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوْ الذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

٤- الأمانة والقناعة والحكمة: لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَغِ مِنْكَ

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).



الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الْأَرْضُ: إِنَّمَا بَعْتُكَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ: الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ، وَقَالَ الْآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ، قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلَامَ الْجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا^(١).

٥- السَّمَاخَةُ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْاِقْتِصَادِ: لِحَدِيثِ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»^(٢).

٦- قِيَامُ اللَّيْلِ: لِحَدِيثِ ابْنِ عَمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ». فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا^(٣).

٧- تَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ: لِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قَالَ: لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْمُتَرَجِّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ، وَقَالَ: «أَخْرِجُوهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٦)، ومسلم (١٧٢١).

(٣) أخرجه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٩).

مِنْ بَيوتِكُمْ»^(١)، وفي رواية: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنْ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»^(٢).

من أشرط الساعة قلّة الرجال:

لحديث أنسٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيَقِلَّ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الزَّنا، وَتُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرُ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً قِيَمُهُنَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ»^(٣).

فقلّة الرجال مع كثرة المعاصي وكثرة النساء يترتب عليه مفسادٌ عظيمٌ.

لا يصلح لإصلاح الدنيا والدين إلا الرجال المخلصون:

لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلًا مَنِّي أَوْ

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧٧).



مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا، وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا»^(١).

أما إذا تولّت النساء أو الذكور قليلو الرجولة والمروءة فسدت الدنيا؛ لقول النبي ﷺ: «لَنْ يَفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»^(٢).

وذكر النبي زمانًا ينطق فيه الرويضة، وهو السفية التافه يتكلم في أمر العامة، فعن أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَاعَةٍ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيَكْذَبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَخُونُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْضَةُ» قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْضَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «السَّفِيهَةُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٧٩١٢).



٥٥- من فطنة الداعي والناصح في خطابه للنَّاسِ أنه يُشْرِكُ نَفْسَهُ معهم في الخطاب: فهذا المؤمنُ الرشيدُ قال لقومه: {فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا}، ولم يقل: «جاءكم»؛ حتى يُشْعِرَهُمْ أنه منهم، وأنه يخافُ عليهم كما يخافُ على نفسه، وأنه يعِظُ نفسه كما يعِظُهُمْ، ويأمرُ وينصَحُ نفسه كما ينصَحُهُمْ، فهذا أدعى إلى قبول الخطاب واستجابة الدعوة.

٥٦- حرمةُ الكذبِ والتكذيبِ وعاقبةُ الكذابين والمكذابين للحقِّ: فتكذيبُ الأنبياءِ والرسلِ وأتباعِهِمْ في حُجَّتِهِمْ وأدْلِيهِمْ التي أخذوها من وحيِ الله كتابًا وسنةً هو أصلُ الشرِّ والكفرِ والطغيانِ والصدِّ عن سبيلِ الله.

وكذلك الكذبُ على الناسِ في الحديثِ إليهم، والكذبُ على الله ورسله بالتَّقْوَلِ عليهم بما لم يَقُلْهُ الله ولا رسوله من أكبرِ الكبائرِ، وأعظمِ العظائمِ؛ لقول الله تعالى: {فَتَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [آل عمران: ٦١].

وقال سبحانه: {كَلَّا إِنْ كَتَبَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا



أَدْرَكَ مَا سَجِئٌ ﴿٨﴾ كَتَبَ مَرْفُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾
 الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
 أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ
 عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
 لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي
 كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ { [المطففين: ٧، ١٧]، فالمُكَذِّبُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُلِ
 هم أصحاب النار الخالدون فيها، المحجوبون عن رحمة الله وعن
 النظر إلى وجهه في القيامة.

وأما الكذّابون فيكفي فيهم - إضافةً على ما سبق - قول النبي
 ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي
 إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ
 عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ،
 وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى
 الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٧).



وقال النبي ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(١).

فيكفي في الكذب أنه صفةُ المنافقين، وصفهُ أهلُ النارِ.
وقال ﷺ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمُ، وَيُلْهُ لَهٗ، وَيُلْهُ لَهٗ»^(٢).

ولهذا قال مؤمن آل فرعون في حق فرعون الكذاب المدلس المخادع: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر: ٢٨].
فالكذابُ المسْرِفُ في الكذبِ مثله لا يستحق الهداية؛ بل الكذبُ من أعظم أسباب الضلالِ.

٥٧- بشاعةُ جريمةِ السحرِ والساحرين: فالسحرُ كفرٌ، وضررٌ محضٌ، وعبادةٌ للشياطين، قال تعالى: {وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ} (٧٧)

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٤٦).

[يونس: ٧٧]، وقال: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} [البقرة: ١٠٢].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ

كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١).

وفي هذه القصة العظيمة لما عجز فرعون وهامان وقارون عن تكذيب موسى عليه السلام رموه بتهمة السحر والكذب؛ حتى يُنفروا الناس عنه، ويشوهوا صورته عند الناس؛ ليصدوهم عن سبيل الله تعالى؛ لما يعلمون ما في هاتين التهمتين من الشر والفساد، وبغض الناس لمن اتصف بهما.

٥٨- الحق الذي يحبُّ اتِّباعه هو ما جاء به الأنبياء والرسل وما

دونه هو الباطل: قال الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} {٦٢}

[الحج: ٦٢].

(١) أخرجه أحمد (٩٦٦٧).

وفي هذه القصةِ العزيرةِ قال تعالى عن موسى ﷺ: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} {غافر: ٢٥}.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)؛ أي: باطل؛ لأنه ضدُّ الحقِّ الذي جاء به الرسل.

٥٩- الله جل وعلا يحفظُ دينه على يد من يشاء من عباده: فهذا رجلٌ من آلِ فرعونَ اصطفاه الله لحملِ الدينِ والدفاعِ عن موسى، فالله جل وعلا يُعطي الدنيا لمن أحبَّ ومن لا يحبُّ؛ ولكنه سبحانه لا يعطي الدينَ إلا لمن أحبَّ، وإن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً استعمله، وكما أن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناسِ فكذلك يصطفي من عباده من يعلمه الدينَ، ويعلم به الأمة، وينفع به، وعلى قدرِ إخلاصِ العبدِ لله وحده واجتهاده، يصطفيه الله لحملِ دينه، ويرزقه الهمة والصبر والثبات.

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨).

وذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضلِ العظيمِ.
وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ
عِنْدَ الثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ»^(١).

وسبحان الله! أكثرُ رُواةِ الحديثِ من العجم، كالبخاريِّ،
ومسلم، وابنِ ماجه، وأبي داود، والنسائي، والترمذي.

٦٠- اليقينُ المنافي للشكِّ من شروطِ صحةِ الإيمانِ والتوحيدِ:
قال مؤمنُ آلِ فرعونَ: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُرْتَابٌ} {إِغْفِر: ٣٤}؛ أي: مسرفٌ على نفسه بالشركِ والمعصية،
وشاكٌ في دينِ الله وفيما جاءت به الرسلُ، فمثلُ هذا جديرٌ بأن يُضِلَّهُ
ويطبعَ الله على قلبه.

وقال الله تعالى في وصفِ المؤمنين الصادقين: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} {الحجرات: ١٥}.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٧).



وقال النبي ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ يَقِينًا مِنْ قَلْبِهِ، لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ». وَقَالَ مَرَّةً: «دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَلَمْ تَمْسَهُ النَّارُ»^(١).

فمن شروط كلمة التوحيد اليقين المنافي للشك.

هذا ما يسر الله ذكره من فوائد هذه القصة العجيبة، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين!

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٦٠).

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
٣	مقدمة
٨	المبحث الأول: الآيات الواردة في قصة مؤمن آل فرعون ﷺ
١١	المبحث الثاني: معاني كلمات القصة
١٧	المبحث الثالث: المعنى الإجمالي للقصة
٣٥	المبحث الرابع: الفوائد والعبر من قصة مؤمن آل فرعون
٣٥	الاستعانة على قضاء الحوائج بالكتمان
٣٦	اختيار الوقت المناسب لإظهار الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة المستضعفين
٣٦	تحيين الفرص لتعليم العلم والدعوة إلى التوحيد ومنهج الأنبياء
٣٧	حرمة تأخير البيان عن وقت الحاجة
٣٧	أهمية السرية في الإيمان والدعوة إلى الله في بعض الأحيان، وبعض الأماكن
٣٩	وجوب الدفاع عن القرآن والسنة والأنبياء والرسل والعلماء والمصلحين من أهل السنة والجماعة
٤٣	من أعظم وسائل التربية والتعليم والدعوة إلى الله التذكير



- بنعم الله، والترهيب من عذاب الله
 ٤٥ المعلم الحق والداعي المخلص لا يمل من تكرار الدعوة
 وتذكير الناس بالله
 ٤٦ الرفق واللين والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة
 ٤٧ التحذير من الكبر وعاقبة المتكبرين
 ٥١ بيان عاقبة الفسقة أتباع المتكبرين وأذialهم
 ٥٣ الدعوة إلى الله تعالى بالترغيب بذكر أسماء الله الحسنى
 الدالة على عظيم عفوه وغفرانه مع عزته وغناه عن خلقه
 ٥٤ فضل التوكل على الله وأثره على أصحابه
 ٥٤ الميزان عند الله تعالى بالإيمان والتقوى والعمل الصالح،
 وليس بالحسب والنسب والجاه والسلطان والمال
 ٥٥ وجوب الحرص على بقاء الدعوة وسلامة الدعاة إلى الله
 وصيانتهم من المجرمين
 ٥٦ التدرج في إقامة الحجّة على المدعوين خاصة المعاندين
 ٥٩ العمل للدين مسؤولية الجميع
 ٦٢ حُسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الظالمين
 ٦٣ أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر
 ٦٤ جواز كتم الإيمان لمن خاف على نفسه الهلاك



- ٦٥ منزلةُ الإيمانِ وأهميته
- ٦٦ الهدى والضلالُ بمشيئةِ اللهِ وحده، والإنسانُ سببٌ في وقوعها، وهو المسؤولُ عن أفعاله
- ٦٧ الهدايةُ هديتان: هدايةُ إرشادٍ، وهدايةُ توفيقٍ وسدادٍ
- ٦٨ التحذيرُ من مكرِ أهلِ الفسادِ وتلبيسِهِم على الناسِ
- ٧٠ وجوبُ الاعتبارِ بحالِ السابقين
- ٧٢ استحالةُ الظلمِ في حقِّ اللهِ تعالى
- ٧٤ وجوبُ الإيمانِ والاستعدادِ لليومِ الآخرِ
- ٧٦ إثباتُ صفةِ علوّ اللهِ الواحدِ القهارِ
- ٧٨ شروطُ قبولِ العملِ الصالحِ عند اللهِ تعالى
- ٨٠ من مات على الشركِ أو الكفرِ خسرَ الدنيا والآخرةَ
- ٨١ وجوبُ التوكُّلِ على اللهِ والرضا بقضائه وتفويضِ الأمرِ إليه
- ٨٣ جزاءُ الحسنَةِ والسيئةِ بين الفضلِ والعدلِ
- ٨٤ هوانُ المعبوداتِ من دون اللهِ وبطلانُها
- ٨٩ ثبوتُ عذابِ القبرِ ونعيمه
- ٩٣ بيانُ عظيمِ فضائلِ أصحابِ النبيِّ ﷺ
- ٩٥ كلُّ بلاءٍ في الدنيا منبئٌ، ومهما اشتدَّ الكربُ فالفرجُ آتٍ
- ٩٦ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ



- ٩٦ الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ والثباتُ على قولِ الحقِّ
لا يقدَّمُ أجلاً ولا يمنعُ رزقاً
- ٩٦ الحكمةُ من إرسالِ الرسلِ وإنزالِ الكتبِ وبعثِ الدعاةِ
- ٩٧ عادةُ الحكامِ الكفَّرةِ والأغنياءِ الفسقةِ - كفرعونَ وهامانَ
وقارونَ - التدليسُ على الناسِ في دينهم
- ٩٧ وسيلةُ العاجزِ عن الحجَّةِ من أهلِ الكفرِ والشركِ والبدعةِ
- ٩٨ من استعاذ باللهِ أعاده اللهُ، ومن توكَّلَ على اللهِ كفاه اللهُ
- ٩٩ إن تمكَّنَ أهلُ الكفرِ قاتلوكم حتى يرُدُّوكم عن دينكم إن
استطاعوا
- ٩٩ توفيقُ اللهِ للدعاةِ المخلصين في الدعوةِ إلى اللهِ وإقامةِ الحجَّةِ
على المخالفين
- ١٠١ مراتبُ الناسِ في دخولِ الجنةِ
- ١٠٢ أهميةُ الوعظِ لترقيقِ القلوبِ وبيانِ الحجَّةِ وهدايةِ الخلقِ
- ١٠٥ حرمةُ الجدالِ بغيرِ علمٍ أو فيما لا يعني
- ١٠٧ ذمُّ الإسرافِ والمُسرفين
- ١١٣ وجوبُ الحذرِ من أهلِ البدعِ والزندقةِ المراءوين المدلسين
ضعيفي الحجَّةِ بالتلبيسِ على الناسِ
- ١١٥ التحذيرُ من الاغترارِ بالدنيا والغفلةِ عن الآخرةِ



- ١٢١ العبرةُ في الأحكامِ بعمومِ اللفظِ والحكمِ لا بخصوصِ
السببِ
- ١٢٢ جميعُ مكرِ المفسدين في خسارٍ ودمارٍ وضياحٍ
- ١٢٢ التحذيرُ من تزوينِ الأعمالِ الخبيثةِ نتيجةِ الاستمرارِ عليها
- ١٢٥ وصفُ الرجولةِ الحقيقيةِ لا يكونُ إلا لأهلِ الإيمانِ وذوي
الهممِ العاليةِ في طاعةِ الله تعالى
- ١٤٣ من فطنةِ الداعي والناصحِ في خطابهِ للنَّاسِ أنه يُشركُ نفسه
معهم في الخطابِ
- ١٤٣ حرمةُ الكذبِ والتكذيبِ وعاقبةُ الكذابينِ والمكذبيين للحقِّ
- ١٤٥ بشاعةُ جريمةِ السحرِ والساحرينِ
- ١٤٦ الحقُّ الذي يجبُ اتِّباعُهُ هو ما جاء به الأنبياءُ والرسُلُ وما
دونه هو الباطلُ
- ١٤٧ اللهُ جل وعلا يحفظُ دينَهُ على يدِ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادهِ
- ١٤٨ اليقينُ المنافي للشكِّ من شروطِ صحةِ الإيمانِ والتوحيدِ

